تربية الطفل
فى المنزل

بكر محمد إبراهيم

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

وبعـــد ،،،

فهذا الكتاب يتناول جانبا هاماً من علم النفس السلوكي والتربوى – موضوع تربية الأطفال فى المنزل وكيف يرعى الآباء والأمهات أطفالم .

وتأثير الإخوة والعمات والخالات والجداد والجدات على الأطفال .

والثبات عن طريقة محددة فى التربية فلا يعاقب الطفل على فعل فى مرة ، ويكافأ على نفس العقل فى مرة أخرى.

وستعرض نفس الطفل وتفكيره واعتزازه بنفسه وطلبه للرحمة والحنان والشفقة .

كما يبين دور الأم فى ترسيخ مكانة الأب عند الطفل وأنه ركن فى المنزل وضرورة وجوده لصالح الطفل والأسرة.

وعدم الاستخفاف بعقول الأطفال وعدم الصراع بين الأم والمدرسة وتعليم الأطفال احترام الكبار، واطلاق الحرية لهم تحت رقابة الأهل لتحقيق استقلال الطفل وإمكانه أن يتعامل مع المجتمع .

كتاب لا غنى عنه لكل أم وأب لأنه يعنيها على تربية الطفل واكسابه السلوك السوى لتحقيق أمنه وسعادته فى مستقبل الأيام

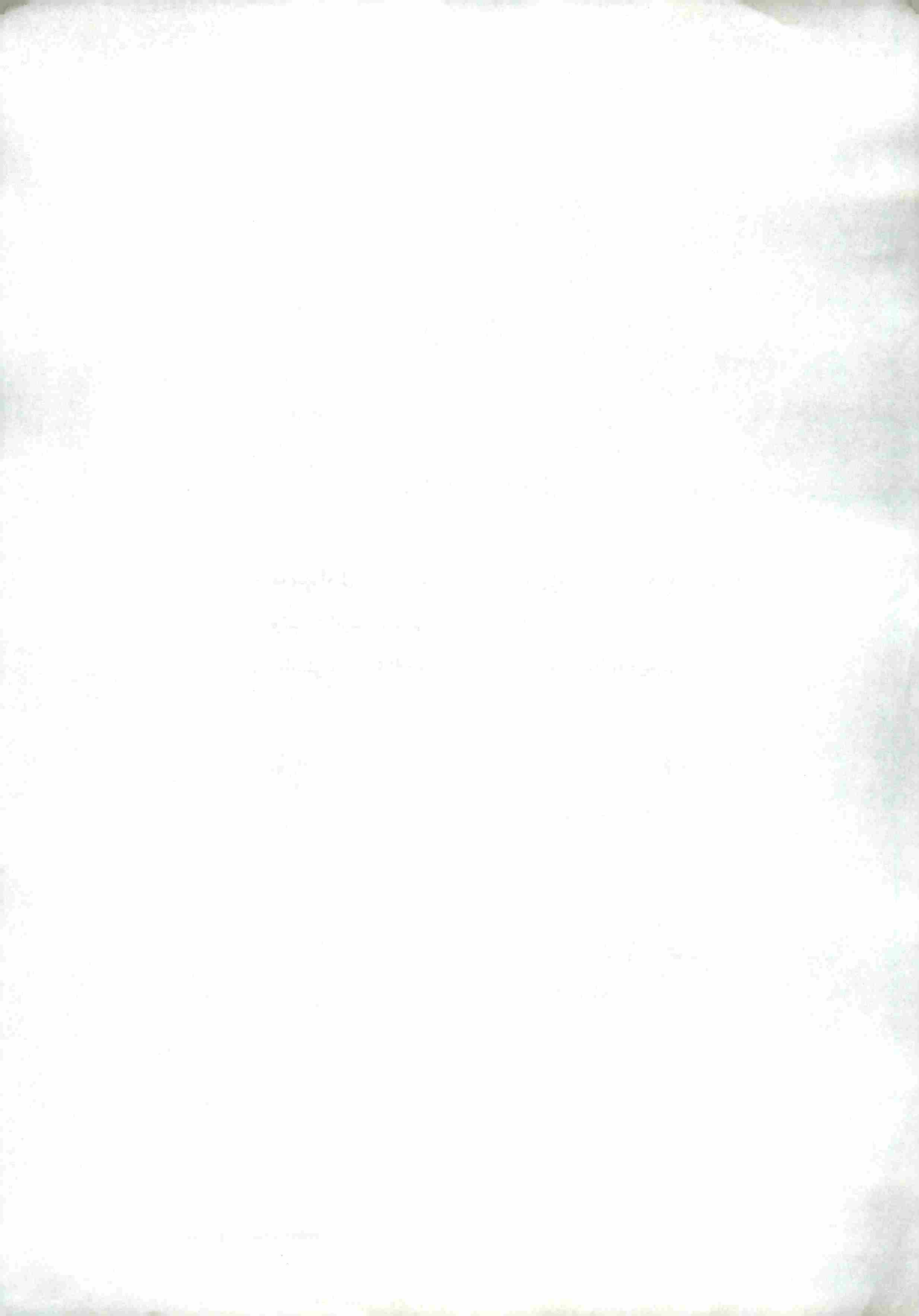
وبالله التوفيق ولله الحمد والمنة .

المؤلف : بكر محمد إبراهيم

الباب الأول

الطفل فى العالم

* ما هى أمثل الطرق لمساعدة أطفالنا على التكيف بالحياة التى نعرفها؟
* وكم من الزمن يقتضى هذا التكيف ؟
* وبالتالى ما فكرة الأطفال عن عالمنا وعن محاولتنا توجيههم ؟



الفصل الأول :

لا متاعب بعد الآن !

ما نوع التأديب، وما مداه ؟

وما القدر اللازم منه ؟

لقد أطاح جيلنا الحالى باعتقاد أجدادنا فى أن من حق الأطفال أن يظهروا أمامنا، ولكن عليهم ألا يسمعونا أصواتهم .. كما أطاح أيضا بالتأديب الصارم الذى كان ضروريا لوضع هذا المطلب موضع التنفيذ.. فأصوات الأطفال تجلجل اليوم فى كل مكان، فى السيارات العامة، والقطارات، والمطاعم، وفى المعارض التى يقيمونها، وهم يسألون الأسئلة ويحبذون الآراء ويعارضون ويناقشون. ويتساءل كثير من الكبار الذين يسمعونهم عما إذا كنا لم نبالغ فى انحرافنا إلى الطرف المضاد .. كما أن هناك اتجاها قويا نحو وجوب المزيد من تقييد أطفالنا، وضرورة التزام التأدب والاحترام المفترضين من سمات أطفال القرن الماضى.

أما مشكلة القدر اللازم من تأديب الأطفال، فهى مشكلة قديمة. وقد نوقشت باهتمام جيلا بعد جيل .. فإذا لم يكن كل والد مفكر قد تدبر هذه المشكلة قبل مجىء الطفل، فلابد أنه سيتدبرها حين يكون طفله لا يملك حولا، وحين يكون موضع الحب فى مهده. فيقول واحد : «سوف لا أفسده» ويقول آخر بلهجة التأكيد : «لن أكون له مطية سهلة».

في حين أن هناك آخرين ليسوا أقل من هذين رجاحة عقل، ولكنهم أكثر جرأة .. يقول الواحد منهم : « سأدعه يفعل ما يريد لأنه كل ما أملك» أو : «لقد كانت طفولتى تعسة للغاية، فيجب ألا تكون طفولته كذلك».

وبرغم هذا، فإن كثيرا من هذه القرارات تتعدل عند التطبيق، وينتهى الوالدان الشغوفان بعد عامين - مع الأسف - إلى أن المحبوب الضعيف يحتاج إلي قبضة قوية .. فهذه الأم التى تمردت على استرقاق الأطفال لها، تلازم هؤلاء الطغاة الصغار ليل نهار، وبعد أن كانت متأهبة لمنح طفلها كل شيء، تمطره وابلا من أوامر التحريم والمنع، بل وتصفعه بين الحين والآخر صفعة موجعة.

ويقرر مزاج الأم إلى حد كبير نوع التأديب الذى ستأخذ به طفلها، وقد تجد لسوء الحظ أن «صبرها قد نفد» وأن نواياها الطيبة قد ذهبت أدراج الرياح، أو أن عليها أن تعترف بعجزها عن احتمال رؤية طفلها منزعجا فتعطيه أكثر مما كانت تنوى أن تعطيه.

وفوق ذلك فإن مزاج الطفل الخاص يؤثر - إلى مدى بعيد - على تصرف الكبار، فقد تقول الأم : «لقد حاولت التفاهم معه فلم يفلح التفاهم، ولكنه يفهم بالصفع». وترى أم أخرى أن الكلمة الهادئة تؤثر فى أحد أبنائها فى حين أنها لا تؤثر فى الآخر.

وإذن فمشكلة التأديب مرتبطة بما يطرأ على البال .. وما سبب ذلك إلا أنها من المشكلات التى لم تجد بعد حلا نهائيا. ومع ذلك فهناك رأى واحد فى هذه الناحية لا جدل فيه، ولكنه مع ذلك رأى مجهول فى غالب الأحيان، وهو أن التأديب البالغ الصرامة، والسلوك الشديد الليونة كلاهما سيء، ولكن أيا منهما لا يؤذى الطفل بقدر ما يؤذيه التأديب الذى تتعاقب فيه الليونة والشدة.

إن الطفل الذى ينشأ وفق قواعد صارمة لابد وأن يقاسى فى كبره نتائج القمع، ويعجز عن أن يعيش حياة سعيدة. والطفل الذي يحيا حياة فيها من التدليل قدر أكثر من الضرورى يشب أنانيا لا يعتبر مصالح الآخرين.

ولكن كلا النوعين من التأديب أفضل كثيرا من تأديب تتعاقب فيه الليونة والشدة.

إنه لطفل تعس ذلك الذى لا يعرف أين مكانه ... الطفل الذى تزدريه أمه لا يعرف فكرة مصروف الجيب المنتظم، فهى تعطيه مرة خمسة وعشرين قرشا استرضاء له، وترفض فى مناسبة أخرى من المناسبات أن تعطيه عشرة قروش لشراء حلوى، كما أن والده من ذلك الطراز الذي يلطمه فى ليلة ما، لأنه داس على الصحيفة، بينما يساعده فى مناسبة أخرى على طيها لكى يصنع منها قبعة مثلثة الشكل، وهكذا ينال الزجر والتدليل، والتوبيخ والمديح، والمكافأة والتهديد، فى مدى ساعة واحدة.

إنه تعس .. لا لأنه يعامل معاملة سيئة . فالواقع أنه قد يصبح بمضى الزمن شخصا سويا إلى حد ما، لأن لحظات المعاملة الطيبة علاج ناجح جدا لنوبات المعاملة السيئة، ولكن لحظات التدليل هذه لا يمكن بحال أن تذهب بالحيرة المتزايدة التى يقاسيها أمثال هؤلاء الأطفال.

إن هؤلاء الأطفال يعيشون فى عالم لا يعرف القواعد .. فالطفل الذي يدلله والداه يعرف دون شك أنه يستطيع دائما أن «يعمل ما يريد»، بينما يعرف أنه لن يستطيع ذلك مطلقا ... أما الطفل ذو الوالدين المتشددين المتقلبين بين الشدة واللين، فلا يمكن أن يكون متأكدا من شىء .. فهو يجب أن يتريث أولا لكى يعرف طبيعة الحالة الراهنة، ثم لكى يترقب الفرص لتوجيهها وفق رغبته .. أنه آخر فرقته، فهل معنى هذا ضربة عنيفة، أو ملحة لطيفة تحكى فى اجتماع الأسرة ؟ من اليسير أن يكون أحد الأمرين، ولكن أحدا لا يعرف ماذا سيحدث.

ويترتب على ذلك أن طفلا كهذا، لا تتوافر لديه غير فرصة ضئيلة لكى ينمو ويصبح شخصا متزنا.. ذلك أن هذا القلق الماثل فى حياته منذ أيامه

الأولى، يجعله متوترا قلقا، يرقب علامات الضعف ونذر الخطر ويقول فى نفسه : «لقد ذهب والدى وصفق الباب وراءه بعنف .. لابد أن تكون أمى غاضبة، فخير لى أن أبتعد عن طريقها» أو : «أن والدتى ذهبت لزيارة جدتى، وكانت فى المرة السابقة مرحة معتدلة المزاج، ولربما كان الوقت مناسبا الآن لأطلب منها طائرة».

وكذلك يقاسى الطفل فى نمو أخلاقه الخاصة، فهو إذ لا يجد أمامه مثالا يحتذيه من ضبط النفس أو الصبر أو قوة الاحتمال : فإنه يعبر عن كل تفكير شارد يطرأ عليه .. أنه يريد شيئا ويسأل عنه، ولكن الطلب يرفض، فيتملق ثم يطلق العويل والثورة .. وخاصة لأنه لا يستطيع أن يعتبر كلمة «لا» إجابة، وذلك لسبب بسيط، وهو أن « لا » ليست جوابا نهائيا فى بيته !

إن من حق أولادنا علينا أن تكون معاملتنا إياهم على نمط واحد – قدر ما نستطيع – لكى نكون فى عقولهم صورة واحدة عن أنفسنا. فقد يسأل طفل فى الرابعة من عمره رفيقا له فى نفس العمر : «هل تسمح لك أمك بعمل ذلك؟.. إن أمى لا تسمح لى» فيجيبه آخر : «انها تسمح لى دائما، ولكن أبى لا يسمح لى أبدا» .. هذه هى الدنيا التى يحتاج إليها الطفل فى السنوات القلائل الأولى من حياته .. دنيا ترسم له رسما، ويطيع فيها القوانين التى يستطيع فهمها.

وهو لا يستطيع أن يواجه الآراء المتضاربة ويتحمل مسئولية الاختيار بينها لنفسه إلا فى تدرج بطئ، فإذا فكرت طفلة فى نفسها :«ستغضب أمى حين تعرف أننى فقدت شريط شعرى» فإن هذه الفكرة تنم عن شىء من القلق، ولكنه أقل مما لو فكرت : «لست أدرى ماذا ستقول والدتى ؟» أو «هل ستغضب فى هذه المرة أو ستقول لا أهمية لذلك ؟».

حقا أن لكل راشد أن يمنح الطفل تارة، ويمنعه تارة أخرى، ولكن هذا

يختلف كل الاختلاف عن التقلب فى ضبط نشاط الطفل، لا لسبب إلا قوله : «لقد أمرت بكذا» أو « لأنك لا تستطيع أن تعمل هذا». أو «لا تضايقنى أكثر من هذا».

ولهذا. فمن الحكمة، بل من الانصاف حقا، أن نفسر قراراتنا للطفل تفسيرا يستطيع أن يفهمه، فقولك مثلا : «لا أريد أن تأكل مثلجات غير مغلفة لأنها ....» يمكن أن يقبله الطفل ولو على مضض، فهذا يجعل تصرفنا على الأقل مفهوما لديه، ومع أنه قد يظنه حذلقة لا ضرورة لها، ولكن يدفعنا إلى ذلك على أى حال نوع من المبررات، لا نزوة يعوزها التفسير .. هذا فضلا عن أن الطفل كلما نما وتزايدت معرفته بنا، استطاع أن يطبق ما يعرفه فى مواقف أخرى مشابهة.

ولعل تفكيره فى أن «لا فائدة من سؤالها .. أنا أعرف أنها لن توافق» ينطوى على ألم، ولكنه يتضمن على الأقل معرفة مؤكدة.. كما أن الطفل فى هذه الحالة يعرف موقفه بالضبط، فيتخلص من عناء التفكير فى أنه (ربما) إذا فعل كذا وكذا، فإن أمه (قد) تغير رأيها.

فقد توصف هذه السياسة - أى سياسة اعطاء الطفل تفسيرا لتصرفاتنا معه - بأنها انصياع للطفل، ولكنا باتباعها نؤدى فى الحقيقة بعض ما يجب علينا نحو أطفالنا، وهو معاملتهم بوصفهم مخلوقات مفكرة .

والطفل الذي يلتمس منا بملء الأسى تغيير رأى ما، كقوله : «ألا أستطيع هذه المرة فقط ؟.. لو فعلت فلن أطلب ذلك ثانية .. قطعة صغيرة فقط» هذا الطفل يكون أكثر من نصف يائس حين يظفر بعد مشقة بما يريد، وحين يكون قد اعتصره الضجر آخر الأمر، ويقول : «هذا حسن». لقد كسب شيئا، ولكنه خسر أكثر مما كسب .. خسر اطمئنانه إلى الوالد أو المربية أو المعلم الذى

ينتظر أن يكون ثابتا على رأى .. أنه كما لو كان يختبر لوحا خشبيا بتكرار القفز عليه، فإذا ما آنس منه ضعفا، أحجم عن الاطمئنان إليه فى المستقبل.

وإذا عانت القاعدة الأولى هى أن يكون التأديب ثابتا ومطردا، فإن النقطة التالية التى يجب تدبرها، هى مدى ما فى فرض التأديب من عدالة أصلا، وأى نوع من التأديب يسوغ لنا فرضه.

إن الحرب محتدمة على الدوام في هذه الجبهة بين التقدميين أصحاب المدرسة التى يطلق عليها «مدرسة التأديب الحر» وبين أنصار نظرية : «قف عند الحائط»، أى أصحاب مذهب «أن الأطفال يُرَوْن ولكن يجب ألا يسمعونا أصواتهم»، وأنصار الحركة الأولى يحذرون من الكبت والقمع وتكوين العقد النفسية عند الطفل، بينما يرتعد الفريق الآخر عند سماع قصص السوقة من المعربدين الذين ينعتون الوالدين والمعلمين - دون حرج - بنعوت أبعد ما تكون عن الاحترام.

ومع ذلك فإن الطريقة المنطقية المثلى لحسم هذه المسألة، هى أن ندخل في حسابنا منذ البداية السبب فى ظهور مشكلة التأديب أصلا .. أو بمعنى أصح، لماذا يتحتم على الراشد توجيه الطفل إبان نموه فى طريقه إلى النضج؟.. انا لنجد هنا عند نقطة البدء، ولأول وهلة، حقيقة بالغة الوضوح يسلم بها دون جدل، وهى لشدة وضوحها ظلت مجهولة دائما تقريبا، وهذه الحقيقة الجوهرية التى يعرفها جميع الكبار، ولا يتدبرها غير قلة قليلة منهم، هى أن وجهة نظر الطفل تتعارض تعارضا تاما مع وجهة نظر الراشد.

إن حياة الطفل يحكمها اعتبار أساسى واحد هو : «ما أريده الآن»، فهو يلعب والساعة تدق .. ولكن لآذان صماء، وهو جائع والطعام فى خزانة المأكولات معدة للأكل .. أنه لا يحب جارته ذات الصوت المرتفع، فلا بأس من

هذا .. ولكنه يعلن ذلك على رءوس الأشهاد.. وهو يريد أمه - وقد تكون مشغولة، أو مريضة، أو متعبة - ولكنه يصرخ حتى تحضر

أما بالنسبة للشخص الراشد فإن شعار: «ما أريده الآن» ينبغى أن يكون شعارا معطلا.. فهو مضطر أن يستبدل به شعارا آخر أكثر منه جدية إن لم يكن أكثر حصافة، وإلا أوجد نفسه خارجا على القانون والمجتمع.. أنه يريد أن يشترى بيتا، ولكنه يؤجل الشراء.. أنه متعب ولكنه يجب أن يعمل حتى ينجز نصيبه من العمل اليومى.. وهو يكره زميلا له، ولكنه يعرف ضرورة العمل معه باخلاص.

ومن هنا يختلف العالمان.. عالم الأطفال، وعالم الكبار، أحدهما عن الآخر اختلافا بينا، والواجب الشاق الذى يقع على كاهل الوالد هو أن يقرب إلى عقل الطفل ذلك التغير الأساسى لكى يسلم بوجهة نظره.. ومن ثم يستطيع أن يحيا حياة البالغ بنجاح. ويجب على الراشد أن يغرى الطفل بالاقلاع عما أطلق عليه فرويد : «مبدأ اللذة»، ليحل محله : «مبدأ الواقع» الذى يحكم حياة الراشد.

وإذا ما حققنا هذا، فسنعرف أن تغطية الفجوة الفاصلة بين هاتين الفلسفتين يعد عملا ضخما.. إذ أن ما يفصل بينهما ليس ثغرة ضيقة. ومن الواضح أن مثل هذا العمل لا يتم الا خلال سنوات من التحول التدريجى.

وإذا كانت القبلة هى الوسيلة للاسراع بالطفل إلى هذا التحول، فلابد أن تكون هناك قبلات كثيرة.. وإذا كان الزجر هو الوسيلة، فلابد من قضاء أيام كثيرة نقول فيها أشياء معينة نعيدها ونكررها. أما إذا كان الصبر والفهم هما القاعدة، فلابد أن نعد أنفسنا لاظهار صبر الملائكة وفهمهم !

* * *

«لقد علقت معطفك اليوم بعناية ..»

ويجيب على هذه العبارة طفل فى الرابعة من عمره ميال إلي الغرور بقوله: «نعم، كنت أعرف أنك ستسر لذلك ». ولكن المعطف فى اليوم التالى سيكون مربوطا بخيط، ومدلى إلى الأرض لكى يجعل منه ثقالا. ولكن لا أهمية لذلك، لأن العجلات قد بدأت تدور، وهى تقف أحيانا ثم تستأنف سيرها مرة أخرى.. ولكن سيأتى فى النهاية اليوم الذى يطلب فيه الطفل كذلك مشجبا لمعطفه.

كثير من الكبار يجدون صعوبة فى التسليم بالبطء الحتمى الذى تتسم به عملية التغير، وأكثر من هؤلاء عددا من يخفقون فى تقدير ضخامة الأشياء الصغيرة بالنسبة لعقل الطفل حين يطلب إليه تنفيذها. والعبارات العادية التى يتعبنا ترديدها مثل : «أسرع ! كن نظيفا ! كن هادئا ! كن مؤدبا ! كن رحيما ! لا تخطف الأشياء ! اسأل بلطف !» ما هى إلا ألوان من التفكير والسلوك غريبة عن طبيعة الطفل، فلا عجب إن هو استغرق بعض الوقت لكى يتشربها ويجعلها من طبعه الخاص ثم يعمل بها ..!

ومع ذلك فإن هدف كل والد حكيم هو أن يجعل رحلة ابنه، من عالمه الخاص، إلى عالم الكبار، رحلة ممتعة بدلا من أن تكون كفارة عن ذنب اقترفه، كما يحدث فى أغلب الأحيان، وهى رحلة – كمعظم الرحلات – يمكن أن تنتهى بأكثر سرعة إذا ما اقترنت بزمالة مبهجة.

ولقد أثبت كثير من الآباء والأمهات لأنفسهم – قبل أن يعرفوا ذلك عن طريق علم النفس – أن حب الطفل للكبار ممن فى بيئته، هو الذى يغريه قبل كل شىء بأن يتخيل فلسفتهم محل فلسفته الخاصة .. فعبارة " مثل « هل تسمح بالتقاط لعبك قبل أن تخرج ؟» أعمق أثرا من : «يجب أن تتعلم كيف تكون

مرتبا!» لأن العاطفة تسند العبارة الأولى وتخاطب شعور الطفل، بينما تهبط الثانية بشعوره إلى الحضيض .. الأولى تفترض الصداقة والثانية تبدى العداء!

* * *

يعرف كل راشد أن من اليسير عمل أشياء لشخص محبوب - بل أكثر من ذلك أننا نريد عمل شيء ما للشخص المحبوب - ولكن هناك عددا هائلا من الكبار يضعون أنفسهم مختارين فى قائمة الناقدين الآمرين فى معاملاتهم مع الأطفال : «لا أحب ذلك» أو «يجب ألا تتصرف على هذا النحو !».

وتتكشف هذه المواقف عن تشبث الطفل بطريقته الخاصة فى الحياة، مما يسبب للراشد خيبة أمل .. «أنه عنيد لدرجة لا تصدقها! فإذا ما طلبت منه عمل شيء، فإنه يفعل العكس تماما.. أنه اللعة بعينها !».

ومع ذلك فإن استحسان الشخص المحبوب لشيء ما من حين لخر مثل : «هذا لطيف !» أو « يا لهما من يدين نظيفتين !» يعد مكافأة لا يستطيع أى طفل أن يقاوم اغراءها، وتؤثر هذه اللهجة فى تبديد الكدر .. كما تؤثر العبارة الأولى فى تجميعه. وفوق ذلك، فإن الطفل يبدأ فى ملاحظة أساليب جديدة من السلوك مرغوب فيها، لأن الشخص المحبوب يستحسنها.. وهذا يشجع الطفل على احلالها محل سلوكه الأصلى، وفى هذه الحالة فقط ندفع للطفل ضريبة قولنا : «انه يتعلم آداب السلوك» و «سيحسن فى المستقبل !».

ومع ذلك فإن قيمة الحب في هذا التعليم أعمق من ذلك، لأن الطفل لا يتعلم فقط بسرعة أكبر - وهو الأمر الأهم - ولكنه يتعلم عن رغبة ومهما يحدث فى وجهة نظره من تغيرات، فإن حدوثها يتم بناء على موافقته الكاملة، وينجح فى الأخذ بمبدأ الواقع مختارا إذا ما كان على مراحل صغيرة.. أنه يرغب فى عمل هذه الأشياء، ويبدو عليه الأسف إن أخفق : «لقد حاولت يا أمى» أو «آسف لأننى لم أستطع عمله».

ويفسر هذا الشعور مدى خيبة الأمل التى أصابته.. وهنا نكون قد بلغنا أهم دور فى تقدمه، وذلك أن القواعد الجديدة للحياة تكون قد أخذت تتحول إلي قواعد خاصة به، وتكون جزءا من فلسفته .. فلا تطرح جانبا حالما يذهب المؤثر الأصلى.

* * *

ويحزن كثير من الوالدين حين «ينسى» طفلهما عادات المائدة عندما يجلس إلى الطعام فى المدرسة، وحين «ينقل العادات النابية من زملائه الأجلاف» والواقع أن ما حدث هو أن عادات المائدة والحديث المهذب لم يكن قد رضى عنها الطفل بجوارحه رضاء تاما، إنما هو وافق عليها وقتا ما أرضاء لأحد الكبار، ثم طرحها جانبا حين قدم له آخرون نماذج أخرى من السلوك قد تكون أكثر منها تسلية أو أشد قوة .. ولكن إذا داوم الوالد فى اصرار على توضيح ما اعتبره الطفل، شيئا مرغوبا فيه، فإن الاعتبار العميق الذى يشعر به الطفل نحو والده سوف تكون له الغلبة، بمضى الزمن، على هذه الزلات المؤقتة.

وسوف لا تحدث زلات فى المستقبل إذا سمح للطفل بتنظيم تكيفه الخاص، وبسرعته الخاصة، وبطريقته الخاصة .. ونحن نعرف جميعا الشاب الذى يترك بيته لأول مرة، فيرتد إلي السلوك الذى لم يجرؤ على الافصاح عنه عندما كانت تظله شجرة العائلة، فإذا كانت مطالب الوالدين بالغة السرعة أو بالغة الشدة، فسرعان ما يوقف الطفل مبدأ اللذة - بوصفه طفلا - ويأخذ بمبدأ الواقع من الناحية الشكلية فقط، فيغير ملابسه الداخلية، ويواظب على مواعيد عمله، ويتذكر رفع قبعته، ويمسح حذاءه.

ولكن لا يمضى شهر من الحرية حتى يعود إلى مسراته التى لم يتخل عنها راضيا مختارا، فهو البارز بين الأولاد كأنه حياة الجماعة وروحها، وهو الذى لا يبقى على مال فى جيبه، وهو الذى يجد فى كل عمل جديد شيئا لا يروقه.. انه فى الواقع يطبق نظرة الطفل إلى الحياة، على ظروف الكبار.

ومع ذلك فإنا إذا نجحنا - حتى إبان سنوات الحضانة - فى مساعدة أطفالنا من خلال حبهم لنا، على الأخذ بطريقة حياتنا، فسرعان ما نجد أننا قد أكسبنا سلوكهم قوة دافعة تسير بهم قدما. إن ولدنا سيتعلم كيف يوقف اللعب بنفسه فى الوقت المناسب حتى يتمكن من مقابلة والده فى المحطة، وأن ينبذ ما يغريه بشراء الألعاب النارية فى سبيل رؤيته القطارات التى فتنت لبه، وسيتعلم فى الواقع أن القيود المزعجة التافهة المفروضة على حياة الكبار، قد نضجت، وأصبحت عادلة لأنها تهدف إلى تحقيق أكبر نفع للجميع.

ويوافقنا الطفل على ما نقول، متشككا فى بادىء الأمر، كأن يقول : «سأفعل إن كنت تريدنتى أن أفعل» أو « حسن، إن قلت لى أنت ذلك»، ولكن كلما تقدمت به السن تصبح هذه الموافقة التى تمت لارضائنا، جزءا من ذات نفسه .. جزءا من النفس المثالية، تلك النفس التى يود أن يكونها.

ويرى المراهق - كما نعرف - الإزدهار الكامل فى شعوره الذاتى .. وفى هذا الوقت الذي يأخذ فيه الطفل فى الانتقال إلى عالم الكبار، ينشط تأديب الطفل لنفسه بنفسه. وفى هذا الوقت أيضا يظهر بوضوح شعوره بالمسئولية عن نفسه : « وددت لو لم أقل ذلك » أو « لقد كان قبيحا منى أن أقاطع السيدة «ب» في الطريق لمجرد أنها كانت تبدو رثة الثياب وكنت آنئذ مع فتيات المدرسة» أو «لن أجلس مرة أخرى قط، ومشابك التجعيد ممسكة بشعرى، فلقد فزعت لدخول والدى مع بعض أصدقائه». هذا هو الأدب الحقيقى الوحيد الذي يقام له وزن .. الأدب الذى ينبع من الباطن وينبثق من النفس، وهو الوحيد الذى يؤثر لأنه نموذج دائم يقيس عليه الطفل أعماله.. ويقتضى نموه - كما رأينا - وقتا طويلا، لأنه كجميع الأشياء الطيبة، بطىء النضج.

* * *

الفصل الثانى :

الحاجة إلى العقاب

هل العقاب ضرورى ؟ وهل هو من
المشكلات التى يتيسر البت فيها ؟

تأتى عقب مشكلة التأديب - مباشرة - مشكلة العقاب .. فالوالدان الجادان يفكران فيها غالبا قبل كل شىء، أى قبل المشكلة العامة، وهى توجيه الأطفال.. فهما يبحثان مع غيرهم عن أنجع الوسائل المستخدمة في العقاب، ومتى يستخدمانها، وعن مدي صرامتها.. وهى من الموضوعات القليلة التى يتهيأ فيها الوالدان الشابان للبحث عن النصيحة، يلتمسانها عند الأكبر منهما سنا ممن ربى أطفالا من قبل، فيسألان : « كيف عالجت الأمر ؟» أو « كيف أرغمت ابنك على فعل هذا أو الامتناع عن ذاك ؟».

والأشخاص المهتمون بهذا الأمر، لا يكونون عادة قساة القلوب، أو ممن يعوزهم التفكير السليم .. فلربما ضربوا أبناءهم ثم أخذوا يقاسون مرارة الندم لمبالغتهم فى القسوة على الأطفال، أو أنهم لم يضربوهم ولم يندموا ، وإنما كانوا على جانب من الضعف.. ولكنهم - على الأقل - لا يمتون بصلة للفئة القائلة : «اصفعه صفعة قوية، ثم لا تفكر فى الأمر بعد ذلك !».

وهم في الواقع لا يصفعون أطفالهم غالبا بدافع من قلوبهم فى لحظة من لحظات انحراف مزاجهم، ولا يتوعدونهم بغلظة، أو يخطفون من بين أيديهم كنزا صغيرا انتقاما منهم .. ولكن يغلب على الظن كثيرا، أنهم يفعلون ذلك انذارا لهم بما سوف ينالهم من سوء : .. انك تعرف ما سينالك إذا تماديت فى ذلك .. ثم يشرعون - فى صلابة - فى تنفيذ وعيدهم آسفين أكثر منهم غاضبين !

وربما كان هناك شيئا يمكن أن نذكرهما عن طريق العقاب المفيدة فى

البيت .. فالطفل ينبغى - على الأقل - أن يعرف ماذا ينتظره .. حتى لا يكون مطلقا فريسة قرارات عاجلة أو تهديدات غامضة مثل : « انتظر، فسوف ترى» فإذا ما نفذ العقاب عرف أن الأمر قد انتهى، ولا يشعر هو ولا الوالد بحاجة ملحة إلى إثارة الحادث من جديد.

والخطأ الأساسى الذى يرتكب فى كل بحث يدور حول الطريقة «المثلى» للعقاب هو فيما يظهر، التسليم مبدئيا بأن العقاب ضرورى.

إن معظم الناس يسلمون بهذا كأنه حقيقة لا تحتمل جدلا.. حقيقة أن الأطفال بحاجة إلى تقويم وتوجيه إلى المسالك التى قررنا نحن الكبار أنها مسالك قويمة !.. ومن المسلم به منذ أقدم العصور أن «واجب» الكبار تعليم الأطفال الطريقة التى ينبغى لهم انتهاجها.. وقد يكون هذا صحيحا، ولكنه لا يستتبع بحال ألا يتم بلوغ هذا الهدف بغير العقاب.

وإذا تدبرنا أولا جرائم الطفولة التى يعاقب عليها الأطفال عادة، وجدنا أنها تلك الجرائم التى تزدرى سلطة الكبار، ويعبر عنها عادة «بالعصيان المقصود» فقد حظر على الطفل القاء الأشياء في النار، والجدل، ولمس جهاز التليفزيون، ولكنه لايزال يفعل ذلك.. فهو يعاقب لنعلمه الإقلاع عن هذه الأشياء.

ولكن، هل العقاب يؤثر حقيقة فى مثل هذه الحالات ؟.. يرى كثير من الآباء أنه يؤثر فيها فعلا، وأن الطفل يظهر أنه قد تعلم درسه.. ولكنه فى حالات كثيرة جدا يتعلم فقط أن يكون أكثر حرصا عند ارتكاب هذه المخالفات، فهو يختار فرصته بعناية أكبر حتى لا ينضبط .. وهو دون شك لا يجادل، ولكنه يتجهم أو يهمهم فى سره، أو يصم أذنيه عما يسمع.

وتثور الأم قائلة : «لقد قلت لك مرارا أننى لا أحب هذا النوع من السلوك».. وكلمة «مرارا» هذه تكشف - فى الحقيقة - عن عدم تأثير عقابها!

وهناك طريقة أخرى ينظر بها إلى العقاب، مثل عقاب الطفل «حرصا على صالحه».. إذ أن اللعب فى الطريق، واللعب بالنار، كلاهما خطر عليه وعلى الآخرين. ولكن إذا كان تبصير الطفل، وهو هادىء، بخطر الجرى فى الطريق قد أخفق فى منعه من ذلك .. فهل يكون لتحكم أمه الشديد أثر فى الطفل وفى الأم معا حين يكونان مضطربين غاضبين، أو حين يلقى بالطفل أحد رفقاء اللعب على الطوار وهما فى غمرة اللعب ؟.

يجب أن نتحمل مسئولية سلامة الطفل حتى يبلغ النضج الكافى، ويصبح مسئولا عن سلامته الشخصية فى الطريق.

ويجب أن يحرم اللعب فى الطريق، وأن توضع أدوات فعالة لوقاية الطفل الصغير حتى يصبح قادرا على وقاية نفسه.

ولا يزال من الخير تناول الموضوع بطريقة بناءة، وهى أن ندرب الطفل الدارج على التريث عند كل ناصية، إلى أن يستطيع مع الزمن أن يشترك فى الألعاب، ثم لا يلبث أن يفكر فى القفز إلى مجرى ماء، كما يستطيع الجرى فى الطريق.

ويتبقى أن نعلم الطفل، بنفس الطريقة، أن يعمل بأمان أعمالا خطرة بدلا من منعه من القيام بها، وبذلك نحيطه بسياج يحميه من ضروب الإغراء .. فالطفل فى سن الثالثة يمكن أن يدرب على اشعال النار والقطع بسكين حادة -كما يمكن تدريبه على استخدام الملعقة- دون خطر كبير، ويمكن أن يتعلم اشعال الثقاب على أن تكون يده بعيدة عن جسمه، وأن يلاحظ موضع أصابعه عندما يقطع بآلة حادة، وأن ينفذ هذه الواجبات بكفاءة كاملة .. وهكذا.

وسيكون لنا أن نشرف بطبيعة الحال على هذه النواحى من النشاط، ولكن سماحنا بأداء هذه الأعمال لا يعنى فقط مساعدة الأطفال على بلوغ درجة

من المهارة أوفر فحسب، بل نكون قد أزحنا عنهم تعاسة العيش فى عالم ملىء بأشياء خطرة .. أشياء تؤلم، أو تحرق، أو تقطع، أو تضر.. لا بل بما هو أسوأ، عالم تحيط به تحذيرات لا حصر لها : « لا تلمس ! ».

ومع ذلك، فإن معرفة الراشد أن الطفل لم تعد به حاجة إلى عدم الطاعة وارتكاب هذه الأشياء خلسة لأهم كثيرا من مجرد معرفته أن الطفل يستطيع ارتكابها.. والطفل الذي يرفع بين حين وآخر لكى يلمس بأصبعه الفواكه المصنوعة من الشمع، والموضوعة تحت ناقوسها الزجاجى، سوف لا يضبط مطلقا وهو يتسلق ليجسها فى غيبة والدته أو جدته.

والواقع أننا لو اتخذنا لأنفسنا مقياسا .. وهو أننا نقصر العقاب على عدم الطاعة فقط، فحينئذ نجد - إذا ما فحصنا هفوات أطفالنا بعناية - أن معظمها كان بدافع حب الاستطلاع، أو الجرأة، أو النشاط البدنى الكبير، أو المزاح، أو ما إلى ذلك .. وهى صفات تبعث فى جملتها على السرور لا على الضيق، وينبغى لنا الإبقاء عليها .. ولئن كان توجيهها ضروريا، ولكنها قلما تنهض سببا كافيا للعقاب.

وهناك حقيقة على وشك الظهور، وهى أننا نواجه الآن اعتبارا أكثر من هذا خطرا .. ذلك أن أحد الأبوين لا يعاقب طفله فيما يظهر بسبب عدم الطاعة، فمثلا تقول الأم : « اننى أعرف أنه لم يقصد أن يفعل هذا .. أنه ليس خبيثا فى الواقع، ولكنها شيطنة»، وكثيرا ما تنتهى هذه الملاحظات بقولها : «ولكنه يخرجنى عن صوابى».. وهذا تعبير فى الواقع قريب من الحقيقة.

إن الأطفال يعاقبون فى غالب الأحوال لأن أحد الوالدين يكون قد استثير .. وبذلك لا يكون الطفل فى الحقيقة هو الذى يستحق العقاب، ولكن الشخص الكبير هو الذى يحتاج إلى عقاب. ومثال ذلك ما قالته إحدى الأمهات : «لقد

صفعته للحال .. وعلى أثر ذلك أحسست بشيء من الراحة .. لقد أفادني ذلك قليلا».

هذه كلمات مزعجة حين نقرأها مطبوعة .. ومع ذلك فهي كلمات صريحة تكشف عن النظرة الحقيقية لمسألة العقاب. أن اليوم العامر بالمشاغل، ومئات الأعمال التي ينتظر منا انجازها، والطفل المزعج الذي لا يريد سماع نداء العقل .. كل ذلك يتكشف عن المنظر التالي : صفعة شديدة، انخراط الطفل في البكاء، وانتصار ساحق مفاجئ للأم .. إن إحساسها بالغيظ والضيق وجد متنفسا. ولما كانت العقوبة تنتهي غالبا بإذعان الطفل - رغما عنه - فإن الأم تشعر بشيء من الهدوء !

ولكن لنسلم بأن الأم قد شفت غليلها .. فهل أفاد الطفل من العقوبة؟ إن ذلك موضع شك كبير، فالمرجح أنها تركت في نفسه أثرا سيئا، إذ أدرك أن أمه سريعة الغضب، وأنها معرضة لحالات نفسية لا يمكن تفسيرها، وأنها تؤذي حين تصفع، وتخيفه حين تغضب، وفوق هذا كله يرى أنها تعتبره - ظلما - ولدا سيئا.

حقا أن الطفل قد يغدو أكثر حرصا في المستقبل، وأكثر استعدادا للإذعان، وأقل جرأة على اثارتها ما دام صغيرا عاجزا، ولكن هل هذا حقيقة هو ما نريد أن نعلمه إياه ؟

فإذا كنا نستطيع التسليم بهذا كله، فيمكننا أن نذهب إلى أبعد من ذلك .. إننا قد نعاقب لأننا نخشى أن يفلت أطفالنا من أيدينا فلا نستطيع أن نسوسهم، وأن يظن الناس أننا أطلقنا لهم الحبل على الغارب، وبذلك نكون قد ابتعدنا عما قصدنا، فنهب واقفين ونهز الطفل هزة عنيفة قائلين : «والآن، ألا تفعل ما يطلب منك !».

من اليسير أن نفهم أننا حين نتشكك فى قدرتنا على التغلب على موقف من المواقف، فإننا نحاول إثارة غضبنا لنواجه هذا الموقف، فإذا احتجنا إلى مناقشة المدرسة بشأن معاملة جائزة عومل بها طفلنا، فإنا نتناول هذه المناقشة بثورتنا الهائجة .. فهى الوسيلة الوحيدة التى نستطيع بها استجماع الشجاعة للتغلب على ناظر المدرسة.

ويمكن أن يدعم الغضب ثقتنا بأنفسنا عند معاملة أطفالنا الشرسين، بنفس هذه الوسيلة تماما .. إذ نتخيل أمامنا شبح السنوات التى قضاها هذا المتمرد الصغير فى النمو، ونظن أننا إذا لم نستطع أن نسوسه الآن فلن نتمكن من ذلك مطلقا.

ولكننا إذا كنا نثق فى أنفسنا، فإننا نتناول الموقف بروح أقل عداء، فالفكاهة اللطيفة وروح المرح لهما أثر كبير فى تحطيم دفاع الطفل، وبذلك يمكن أن تختم زوبعة من الدموع بعاصفة من الضحك !.

فنحن إذا أردنا أن نتخلص من مقاومة الطفل لعملية اللبس يمكننا أن نقول له مثلا، ونحن نضع ذراعيه فى كمى السترة : « لنجعل القطار يدخل فى النفق» وبذلك نستعين بعنصر اللعب على هذه العملية المتكررة، ونغض الطرف عن سوء التصرف الذى يؤدى إلى التوبيخ.

ولا نستكبر أن نخرج من الغرفة لكى نهدأ ثائرتنا بدلا من قبول تحدى الطفل ومواصلة الشحناء حتى النهاية. كما أننا نستطيع المبالغة في الاعتدال أثناء ضيقنا، ومقابلة الرفض الصريح من جانب الطفل بعبارة : « لا، اننى لا أنتظر أن تطلب ذلك الآن فورا .. ولكنى سأذهب لإحضار سلة المشتريات، فلربما تغير رأيك حينئذ ».

ونحن نفضل الإيحاء على التنبيه : «سنرى إذا كنت تستطيع خلع معطفك

قبلى .. لنسرع، فقد نرى الهراسة البخارية وهى تعمل » ويمكن أن توصف مثل هذه الوسائل بالتملق أو المداهنة أو الإذعان أو الرشوة، فى حين أنها فى الواقع وسائل أكثر نضجا لمعالجة مثل هذه المواقف .. وهى أجدى من البحث عما يستفز النفس، لأنها تصل إلى خير ما فى الطفل، لاعتمادها على صفات ناضجة من قوة الاحتمال والحصافة والتعقل.

وواضح أن الحاجة إلي العقاب خشية الظهور بمظهر الضعف، تتصل اتصالا وثيقا بالرغبة فى ممارسة السلطة .. ونكرر مرة أخرى أن هذا ليس بالأمر المستحب، بل أنه واضح بنوع خاص حين يتصرف الأطفال تصرفا خاطئا فى حضرة الغرباء.

وكثير من الأمهات اللائى يملن عادة إلي معاملة أطفالهن باللين يكشفن عن فظاظة شاذة حين يكون ذلك بمشهد من الناس، كما يحدث مثلا فى المطاعم والسيارات العامة أو المتنزهات .. وهنا يكثر تنبيههن للطفل : «ألا تبعد كوعك عن المائدة ..؟ ! لا تتململ على مقعدك .. تذكر أين أنت !».

يحدث كل ذلك بكثرة ملحوظة فى الوقت الذى لا يلتفت الطفل فيه إلى هذا التوبيخ - كما هو الحال عادة - لأنه يصدر علنا لهذه المناسبة فقط، لا بوصفه جزءا من التهذيب العادى للطفل ..

بل قد يلجأ الآباء إلي العقوبة القاسية فى مثل هذه الظروف، ويصحب ذلك عادة نظرة غريزية تتوقع شيئا من استحسان الناس كما لو كانت الأم تقول : «اننى لست من الأمهات الضعيفات » !

ولا نشتط كثيرا إذا قلنا أن هذه السلطة تلذ لكثيرين من الكبار، قلوبهم أبعد ما تكون عن القسوة، إذ كثيرا ما يرددون فى حديثهم عن الطفل : « لقد تحطم قلبه تماما .. لقد ظل يتشنج أربع ساعات !» وهم يعدون حزن الطفل

مقياسا لندمه، لا برهانا - كما هو الواقع - على تعاسته بينهم وشعوره بالمرارة والاحباط، وشعوره بالاثم الذى سيبحث عن عزاء له بطريق أو بآخر.

فواضح أن العقاب ليس من المشكلات التى يتيسر البت فيها .. لا من حيث الوقت الملائم له، أو في طريقته، أو فى «مقداره»، فهو مرتبط ارتباطا وثيقا بدوافع الكبار التى أوضحنا بعضها والتى تختفى فى أعماق طبائعنا. وقد يكون العقاب فى كثير جدا من الأحيان للتعبير «عن نفسى، وعن مزاجى المنحرف، وشعورى بالمرارة، واحساسى بالنقص .. كل ذلك على حساب ثقة طفلى بى».

ولهذا السبب، يجدر بنا أن نشعر أطفالنا -منذ نعومة أظفارهم- بسماحة الشخصية الناضجة، تجاه الشخصية الفجة، وهو مظهر من مظاهر نمونا .. فعبارة : «عندما تتزوج وترزق أطفالا ..» تستعمل أحيانا ديباجة لانتحال الحكمة، ولكن حالة الزوجية والأبوة لا تهيئ الوصول إلى الحكمة بشكل آلى، وإن كانت تجعل احتمال الوصول إليها أقرب منالا خلال معيشة الفرد وهو وثيق الصلة بغيره ممن يعتمدون عليه من نواح عدة.

والفرق الأساسى بين الأم التى تحسن معالجة أطفالها فتظفر منهم بالطاعة، وبين تلك التى تنتقل معهم من صعوبة إلى أخرى، ليس مرده إلي اصرارها النسبى على مستويات معينة من السلوك، أو افتقارها إلى ذلك .. بل إلى نضجهما النسبى.

إن الأبوة والأمومة دوران من أدوار النمو، وليسا حالين « يتمان » فى لحظة مولد الطفل .. ونجاحهما يتوقف على ارادتنا وقدرتنا على أن نصبح أفرادا ناضجين، وعلى طرح التصرفات غير الناضجة. ولن ندرك الحماقة، بل والقسوة، اللتين ينطوى عليهمال ما نريده لأطفالنا ونطلبه منهم أحيانا الا من خلال تزايد فهمنا لأنفسنا شيئا فشيئا .. فكثيرا ما تكون القوة الدافعة لنا هى

جشعنا الذى لا يعرف الشبع، والتماسنا للثناء بدرجة تجلب عليهم الاخفاق، وابتهاجنا بالسلطة التى تقتضى اظهارهم كأنهم من انتاجنا .. وليست رغبتنا الواعية فى تحقيق الخير لهم.

إن هذا النمو الذى يكون سريعا - كنمو أطفالنا - إذا تعهدناه تعهدا صادقا، قد يقتضى تنقيح كثير من أفكارنا السابقة مما يسمى لسوء الحظ «تربية الطفل» وإعادة تشكيل هذه الأفكار.. فإذا ما تم هذا بشجاعة وتفكير سليم، فانا نصل إلى الهدوء والثقة بأنفسنا، ذلك الهدوء وتلك الثقة اللذين يؤهلاننا إلى قياة الطفل الصغير الذى لايزال فى مهب العاصفة !

وسوف لا نواجه أطفالنا بمثل ما يواجهوننا به نتيجة لعدم نضجهم.. فلا تلطمهم لأنهم يرفسون، ولا نضرب الطفل ضربا مبرحا لأنه نسى شيئا ما وهو فى عجلة من أمره لأننا أطول منهم مرتين وأقوى منهم عشر مرات .. بل نحاول أن نفتح أمامهم الطرق لضروب النشاط الملائمة لهم بدلا من أن نسد دونهم المسالك. وسوف يتحقق لنا - قبل كل شىء - أنه أجدى علينا فى توجيه أطفالنا أن نظهر أمامهم بسمات الكبار من أن نعاملهم بطرق غير ناضجة شبيهةبطرقهم.

* * *

الفصل الثالث :

مبالغة لا يمكن أن تكون حقيقية

هل تأتى «طيبة» الطفل التى نتوق إليها
من الخارج ثم تنبثق من الداخل؟

«هل كان فلان ولدا طيبا ؟ ..» هذا هو السؤال الذى يقفز على شفاه معظم الأمهات حين يأخذن أطفالهن إلى زيارة أو مأدبة .. وقد ألفت الألسنة هذه العبارة التقليدية حتى كادت أن تغدو شعارا فى هذه المناسبات، كما أصبحت عبارة : «كان طيبا كالملاك» عبارة تقليدية.

كذلك، فقد اعتدنا أن نسأل هذا السؤال ونجيب عنه بصورة آلية ونحن نعد أطفالنا اعدادا حسنا لهذه المناسبات مقدما، وذلك بأن نقول لهم : « يجب أن تظهروا بالمظهر اللائق !» وعندما يؤكد لنا الآخرون حسن سلوكهم، فاننا نشعر بالرضا دون شك.

ولكن ما معنى هذه « الطيبة » التى نتوق إليها ؟.. نحن نأمل ونثق فى أن تنقضي زيارة تستغرق ثلاث ساعات دون أن يخدش فيها طفلنا الأثاث، أو يأكل من الحلوى أكثر من اللازم، أو يضرب صديقه الصغير الذى دعاه، وقصارى القول : « أنه لم يسبب أية متاعب» !

وتستحق هذه الاعتبارات التقدير من جانبنا، إذ تؤثر كثيرا فى المحافظة على الصداقة بين الأمهات.. ولكن هذه الاعتبارات إذا أصبحت مدار اهتمامنا الوحيد، بل اهتمامنا الرئيسى فى الواقع .. فإنها تدل على مستوى منحط جدا من سلوك الأطفال.

لأن هذه المطالب الاجتماعية التى تتصل بنا، تميل إلى الضغط على متعة

الأطفال الطليقة فى اللعب، وعلى التأثير التلقائى الذى يحدثه كل منهما فى الآخر، واستمتاعهم بمختلف اللعب، ومختلف البيئات ومختلف ألوان الطعام .. ويهتمون بالضغط فى صفات النظافة والنظام والأدب و« الأناقة » بوجه عام.

علينا أن نوازن – بيننا وبين أنفسنا لحظة واحدة – فطريقة الاعتذار التى ينتحلها معظمنا حين يظهر أطفالنا أية صفة مخالفة لهذه الصفات كقول الأم مثلا : «انكم تعرفون من هم الأطفال .. إن الطفولة ليست سوى طور من أطوار النمو .. أن جميع الأطفال يمرون بهذه الحالات» وكثيرا ما تكون هذه العبارات مشفوعة بتلك الضحكة المغتصبة الحائرة التى تكشف فى وضوح تام عن أن المتحدثة نفسها تعرف أن تصرفا كهذا من تصرفات الأطفال ليس إلا شيئا مآله إلى الزوال بمضى الوقت، وأن من الخير أن ينتهى فى أقرب وقت.

وإذا كنا عقلاء، فيجب علينا حين يمتدح طفلنا دائما بأنه «هادىء كالملاك» أن نتذكر الحكمة الأخرى القائلة : «ليس كل لامع ذهبا» ! فإن «الطيبة» إذا زادت على الحد لا تكون دائما علامة على سلامة الصحة عند الأطفال، ولا حتى عند الكبار – ولنفس السبب – .

بل قد تكون علامة على أنه غير سعيد أو غير ناضج الشخصية. وهناك مثال غاية فى الوضوح، هو بلادة عقلية الطفل المتأخر، فهى تناقض بصورة واضحة عقلية الطفل السوى الذى «لايمكن تركه وحيدا دقيقة واحدة !».

ومع ذلك، فبين الأطفال الكبار نوعا، من تكون طيبتهم دليلا واضحا على أن جميع شئونهم لا تسير سيرا حميدا .. فالمرء يقابل مثلا الطفل التعيس الذى يبدو عليه انشغال البال خوفا من ارتكاب خطأ، أو رؤية غيره يرتكب خطأ، فهو نادم لأن شيئا من الوحل أصاب سترت.

إذ يشغل باله على الفور بالمردة الذين يأكلون الأطفال، كما يراهم فى كتبه المصورة، وكما يتوهم أنهم ربما يلحقون به وهو يلعب مع غيره، فينطق حينئذ بتحذيرات مرعبة، ويصبح عندما يختفى زملاؤه الأقوياء أثناء مداعبة من مداعباتهم قائلا : «أنتم ماكرون» أو «ستواجهون المتاعب».

وكثيرا ما يمتدح الكبار أمثال هذا الطفل، بل ويضربون به المثل لأنه موضع ثقة، ولأنه «غير مزعج».. ومما يستحق - بطبيعة الحال - أن نهنىء به أنفسنا، أن يتذكر أطفالنا نصائحنا فى غيبتنا، بيد أن الطاعة التى تتم بنفس مبتهجة، والرغبة في تنفيذ ما تريده « أمى » يختلفان عن الخوف العصبى من عمل أى شىء خاطئ، وهو الأمر الذى تتمثل فيه «الطيبة» غير الطبيعية لدى الطفل « الطيب » وإذا لاحظناه عن كثب لرأينا « طيبته » هذه متأصلة فى أرض غير سليمة، فهو طيب لأن مخاوفه تستنفد قواه، ومن الملاحظات التى يرددها كثيرا : «اننى لست ولدا «شقيا».. هل أنا كذلك ؟» وتكرار السؤال عن ذلك يرينا مدى عدم ثقته هو نفسه فى هذه الناحية.

* * *

لماذا يخاف الطفل ويرتعد إلى هذا الحد من مخالفة قانون الكبار الذى يريد كل طفل سوى أن يختبره بنفسه ؟.. ليس بالكثير أن يقال أنه فى كل حالة من هذا النوع، لابد أن يكون الطفل قد كبر إلى الحد الذى يفهم فيه أن الطيبة هى الثمن الذى يجب عليه أن « يدفعه » فى مقابل الحصول على عطف والديه، وهو الشىء الجوهرى الوحيد فى حياته ..

ولابد أن يكون هذا الطفل قد نشأ فى جو يتهم فيه دائما بأنه «ولد شقى!» حيث تكون مستويات الكبار دائما ماثلة أمام عينيه.

إننا نضحك من قصص العصر الماضى التحذيرية التى تدور حول الأطفال الذين يمتصون أصابعهم، أو الذين لا يغتسلون، أو الذين يتململون أثناء

جلوسهم إلى مائدة الطعام، أو يضحكون من الآخرين، أو لا ينتبهون حيث يسيرون، والذين يرتكبون فى الواقع التوافه التى يضيق بها الكبار .. وتصور ما ينزل بهم من عقاب مرعب ..

ومع ذلك، فإن هذه التحذيرات لم يعف عليها الزمن بعد، ولا هى تتسم بالغباء ومجافاة الانصاف للأطفال بصورة أقوى مما يفعله الاصرار المستمر على «حسن السلوك».

ومن ثم، يبدو جليا مدى ما يفقده أمثال هؤلاء الأطفال من متعة الحياة .. كما أنه من المعروف أيضا أنه بالرغم من دعوى الثقة التى وضعت فيهم فانهم فى الحقيقة يسارعون إلى انتهاز الفرص إلى سوء السلوك متى ضمنوا أن أحدا لن يؤاخذهم على سلوكهم ..

أما الشىء الذى ينقصه الوضوح وإن كان أكثر خطورة، فهو ذلك الشعور بالاثم الذي يتحملون عبئه من غير مبرر.. إن كثيرين جدا من هؤلاء الأطفال تنطوى قلوبهم على ذلك الهيكل العظمى المخيف : «أمى لا تحب الأولاد الأشقياء الصغار..» !

* * *

والطفل الذى « يسَاس » بهذه الطريقة، لا يسفر نموه إلا عن شخصية هزيلة .. فهو قد يحافظ على السير في طريقه المستقيم الضيق الذى رسمته أمه الناقدة المنددة، مقابل مكافأة غامضة هى دوام الصلات الطيبة بينهما.. وهو إذ يفعل هذا ، يعجز بمضى الزمن عن الكشف عما وراء نفسه، بل عما فى داخل نفسه.

ويظل الاتجاه العقلى الذى هو من سمات سن الرابعة، والذى يدفعه دائما إلى أن يرجع إلي أمه ويستأذنها، ملازما له أطول مدة ممكنة.. إذ لقنوه جيدا

أن كثيرا مما يرغب في عمله خاطئ، حتى أنه ليعجز فى المستقبل عن الثقة بحكمه الشخصى .

ومن ثم، فإن الطفل الذي يرسف من سن مبكرة فى قيود «الخوف من أن يبدو على حقيقته»، أو من الاعتقاد بأن آراءه وأفكاره ناقصة معيبة خليق بألا يضيف إلي الحياة شيئا، وألا ينال منها شيئا !

ولابد لنا من ملاحظة أن الطيبة تمتدح كثيرا فى الطفل عندما يتوقع المرء عادة أن تصرفه سيكون سيئا .. ومن علامات الخطر أن يكون الطفل سهل القياد بدرجة كبيرة فى موقف من المواقف العنيفة، ففي كثير جدا من الحالات تشعر الأم بطمأنينة كبيرة حين تجد أن ابنها ليس عسير القياد حتى أنها لا تحاول البحث عما يخفيه ظاهره.

هناك مثال بارز من هذا النوع، نراه أحيانا فى حالة الغيرة الطبيعية المتوقعة من الطفل الأكبر، حين يعلم أن طفلا جديدا قد رأى النور.. فيحدث أحيانا أن طفلا « أحسنت تربيته» يتصرف تصرفا طيبا إزاء الطفل الجديد بصورة غير عادية، فهو يحبه ويود أن يختصه بكل شيء، ولا يريد أن يخرج دونه وما إلى ذلك ..

ولكن هذه الطيبة الفائقة، تدعو إلي الريبة لأنها كغيرها من ضروب النفاق تتسم دائما بالمبالغة، فهو كثيرا ما يقول : «هل أستطيع أن أحتضنه؟.. أليس لطيفا؟.. أيمكننى أن أعطيه لعبتى ؟» ولكنه فى نفس الوقت كثيرا ما يبرز امتياز تصرفه الشخصى : «آه .. انظر كيف يلطخ كل وجهه بالطعام !.. أليس قذرا !.. اننى لا أفعل مثل هذا .. هل أفعل أنا ذلك يا أمى ؟.. أليس من الغباء أن يصرخ يا أمى ؟.. لقد بلل نفسه مرة أخرى !.. أليس هذا مزعجا ؟»

* * *

فهذا الزهو المنطوى على الكراهية، مما يسميه أطفال المدرسة تعاليا، يخفى بطريقة مكشوفة عداء شديدا للغاية لهذا الطفل الصغير.. وواضح جدا أن مثل هذا السلوك « النموذجى» يمكن أحيانا أن ينهار، بل هو ينهار فعلا على حين فجأة تحت وطأة الاثارة فى غيبة الكبار، وفى هذه الحالة يكون الطفل الأصغر معرضا لخطر جسيم من جراء الحنق الذى لم يجد تعبيرا أو متنفسا طبيعيا. والغيرة المكشوفة التى تعلن عن نفسها بالامتعاض المعقول، ليست فى الواقع الا صخرة واضحة للعيان، لا تختفى تحت الماء الساكن الخدا ع ..!

ويرتبط موضوع الطيبة برمته ارتباطا تاما بفكرة الضمير وهى الفكرة التى رأى أجدادنا أنها مفيدة وذات أثر فعال في توجيه الطفل إلي طريق التصرف السليم .. وهى كغيرها من معتقداتهم الكثير، عمدنا إلى نبذها فى العصر الحديث أو إلي تلطيفها على الأقل.

كم من طفل فى تلك الأيام كان يرتعد ليلا فى فراشه وهو يصلى : «اللهم انك ترانى»، ولكن القرن العشرين الذي ازداد تسامحا مع أطفاله، لم يكترث للموضوع إلا قليلا. ومال بعض رجال التربية إلى الجانب الآخر حتى بلغوا حد التطرف منادين بعدم اثقال كاهل أطفالنا بفكرة الاثم.

وأصبحت عبارة : «تركوهم أحرارا غير مكبوتين» هى المبدأ المفضل.. فلا خير يرتجى من انشغال بالهم بالاثم، لأن معظم الذين يقاسون من الاضطراب العصبى والانقباض النفسى ومرض السوداء «الميلانخوليا» هم ممن كانت ضمائرهم سريعة الاستجابة رقيقة الحساسية.

* * *

ولكن يحدث أن تعود فكرة الضمير قوية كما كانت، وكما يحدث لكثير غيرها من أفكار أجدادنا، سواء أكانت هذه الأفكار متصلة بالملبس أم بالأثاث

أم بالفكر، مما كنا قد نبذناه فى وقت من الأوقات، واهتم أكثر دعاة التسامح فى « التأديب» عنادا، بالبحث عمن يحميهم كارهين، أو بالأحرى عاجزين عن طرح جميع الروادع فى الهواء.

وأصبحت عبارة : «اننى آسف» تقال فى عجلة للكبار الذين لم يطلبوا مطلقا أى اعتذار. ويصطبغ وجه الطفل الذى لم توجه إليه مرة عبارة : «اننى خجل منك، فيجب أن تخجل أنت من نفسك».. يصطبغ وجهه بألوان الخجل السريع، ثم ينطق المتمرد بعبارة : «لا أهتم!» ثم يختمها بالصياح فى غالب الأحيان قبل أن يوجه إليه لوم.

ولقد استقر فى أذهان معظمنا ممن يعاملون أطفالا صغارا، أنه إذا كانت «الشقاوة» طبيعية فإن الشعور بالاثم طبيعى أيضا، أى أن كليهما يظهر عند الشخص دون مساعدة منا!.

ونستطيع أن نرى شواهد النقد الذاتى عند أطفال فى نهاية العام الثالث من أعمارهم تقريبا، أما قبل هذه السن - كما يعرف معظم الآباء والأمهات - فإن نظرة الطفل إلى سوء سلوكه تكون غامضة إلي أبعد حد، فهو حين يسقط صحفة ويكسرها إلي ألف قطعة ينفجر بالبكاء، لأن صوت التحطيم المفاجىء الذى يحدثه أى شىء، هو كل ما يخيفه.

ولكن دموعه فى السنة التالية، تكون دموع الأسف. ولعل سبب ذلك أن أمه ستغضب، ولأنه يدرك أيضا أنه كان السبب، وأنه حطم شيئا له قيمة، وهنا يكون لكلمة «آسف» معنى لم يكن لها قبل ذلك بعام واحد.. ورغم هذا فإنه ربما كان يقولها بعد أن يطلب إليه قولها.

وكذلك الحال مع طفل الرابعة، فإنه ربما يرفض أن يرى الضيف لعبته .. ولكنه فى أثناء انتزاعها منه، سيلاحظ احمرار وجنتى أمه، ويعرف أنه ارتكب

خطأ ما، وإن لم يكن قد قيل له شيء قط. الواقع أن هذا الدور من الحياة، أى فى سن الرابعة، يأخذ الوالدان فى الشعور بأن طفلهما أصبح أقل إزعاجا بسبب هذا النقد الذاتى.

وسيقولان عنه لجيرانهما : «أنه يعرف الآن ما يستطيع أن يعمله وما لايستطيع» وكلمة «يعرف» هذه كلمة معبرة لأنها ترمز إلى معرفة نابعة فى الحقيقة من باطن الطفل لكى ترشده.

ومن الأفكار التى تبعث فى نفوسنا الارتياح، أن هذا المرشد الباطن يهتم بالشخص ويحل محلنا ويكفينا مئونة من يذكرنا على الدوام.

* * *

وإذا فهمنا كيف يتم هذا النمو، استطعنا حينئذ أن نعرف كيف نضبط طاقة هذه القدرة وعملها عند الطفل، فإن ما يحدث هو أن الطفل عندما يترك دور الطفولة ويكتشف عزلته عن العالم الخارجى، وتقل حاجته إلى الأمن، ويعطى الدليل الكافى على ضآلته وضعفه، فإنه يتلفت فى اصرار أشد من ذى قبل إلى من منحه الأمن، وهو الأم.

وهو كما رأينا سرعان ما يتأكد له - حتى ولو كانت أمه أشفق الأمهات جميعا- أنه محتاج إلى أن يبقى على صلاته الطيبة معها. ومن العبارات التى تدل على عمق ودوام إهتمامه بها :«لا تغضبى ياأمى، سأكون ولدا طيبا.. إنك لاشك تحبيننى يا أمى.. أليس كذلك ؟»،

ويشاطر الأب أيضا الأم فى هيبتها، وربما يصبح شخصية مخيفة «سأقص هذا على والدك، ولست أدرى ماذا سيقول»، ويكون الطفل سعيد الحظ لو كان كل من الوالدين متبعا لقواعد واحدة، فحينئذ يكون لدى الطفل قانون سلوكى واحد يحكمه!

وهكذا يصبح للطفل تدريجيا - إبان سنيه الثلاث أو الأربع الأولى - عالم مرسوم خاص به، ويمكن أن يطلق على هذه الفترة : «العصر الذهبى الذى لا رجعة له»، إذ يكون فيه كل شىء محدودا واضحا يسهل التعرف عليه.. فيدرك مثلا أن قذف اللعب، والصياح، ومقاطعة غيره، كلها أشياء سيئة، واستعمال آنية الفاكهة وقول : «أشكرك» أشياء طيبة.

وهو يعطى - بنفس الوسيلة - صورة واضحة عن جانبى شخصيته.. أى الولد الطيب، والولد «الشقى»، فذاك ولد «طيب» حين يحافظ على لعبه، وهو «شقى» حين يقرص أخته الصغيرة، وهو لابد واجد بعض الهنات في تفاصيل صورته الحسنة مما لا يرضى هواه، فهو يميل كثيرا إلى الثرثرة من النوافذ مع غيره من الأولاد.. ويخرج لسانه للزائر الذى نال منه التعب، وغسل اليدين أمر يزعجه، والسير بجانب عربة الأطفال يسبب له الكآبة . ولكن هذه هى حياته، ولا شك أنه يرتضيها مؤقتا.. وأبهج طريقة تجعله راضيا عن حياته هى إيمانه بالحياة إيمانا مؤقتا.. وهو بهذا يدفع ضريبة الحياة شاء أو لم يشأ، لأنها ضريبة لأمه وأبيه اللذين يحبهما.

* * *

ليس هناك ما يفوق الاستقامة الشخصية يتحلى بها طفل طبيعى فى الخامسة من عمره، فيسلم تسليما تاما بنصائح من يكبرونه سنا، فهو يصيح بصوته الحاد : «أمى، ما رأيك أن «ر» لطخ غسيل أمه كله بالوحل ثم قال : لا يهمنى ذلك !..» وهو قلما يترك فرصة تفلت منه دون أن يلفت النظر إلى سلوكه الخاص، حين يكون هذا السلوك جديرا بالمديح، وخاصة إذا كان سلوك أحد أقرانه سيئا..

طفل فى الرابعة يرى صديقا له يبكى فيذكرنا بقوله : « أتذكر أنه حدث

مرة منذ وقت طويل حين كنا نسير، فتعثرت وسقطت ولم أبك؟» وكثيرا ما يقنعنا بحكايات تبين مدى يقظته فى تطبيق هذه المقاييس السامية على الآخرين: «ألقى اليوم « ر » بسفينتى المدرعة على الأرض بعد أن فرغت من صنعها مباشرة.. ألم يكن شقيا؟..

أراد «ب» الحصول على بعض القوالب، ولكنه لم يجد منها شيئا، ولذا أعطيته بعض قوالبى.. أنه تصرف لطيف، أليس كذلك ؟..» فهذا الطفل له مقياس ذاتى يقيس به نفسه ويقيس به غيره من الناس، مقياس ذاته المثالية، أى الإنسان الكامل الذى يريد أن يكونه، « الذات العليا » التى رسمها له والداه.

ينبغى ألا نعتقد – بطبيعة الحال – أن هذا تم بفعل العقل الواعى، بل هى عملية العقل الباطن تكونت على مدى السنوات الأربع أو الخمس الأولى ذات النمو السريع، والطفل يتخذ – بكل غيرة وحماسة – مقاييس والديه الأخلاقية إذا ما أحسنا إبرازها له.. وقد يكون من المستحسن أن يفعل ذلك لأنه يكتسب على الأقل شيئا يمكن أن يرجع إليه فى غيبتهما .. أى تتمثل أمامه «ذاتا» أفضل يقيس بها نفسه.

* * *

هذه هى البداية الحقيقية لنمو الأخلاق، لأن هذه المقاييس الآن هى فى الحقيقة جوهر الطفل نفسه، فلا تتعدل ولا يضاف إليها مطلقا.. وربما يكون المثل الأعلى الذى أعطيناه قد تغير فى عامه الأول بالمدرسة وأصبح قديما وبذلك تهبط أسهمنا :

«يجب أن نخلع قمصاننا وصدرياتنا عند اللعب.. أن معلمتى تقول : اننا نرتدى من الملابس أكثر من اللازم.. أن معلمتى أمهر منك وسأنفذ ما تقول».

وسوف يعطيه فيما بعد أصدقاء آخرون قدرا آخر من الأفكار، فالقراءة

والتعليم دون شك سيوسعان وجهات نظره. والواقع أنه إذا كان متفتح العقلية فسيغير على مدى حياته تفاصيل «ذاته العليا» ولابد أن يكون نصيبنا الذى لا محيص عنه هو نقدنا ونقد قيمنا..

ولربما نجد من العسير أن نسلم بهذه الانتقادات فى الوقت الذى نوجه فيه أولى خطواته بحماسة بالغة، ولكن إذا أدركنا أنها شواهد على نمو قدر كاف من الثقة يؤهله للوقوف وحده دون عون، وللتفكير لنفسه، فإنا لا نملك إلا أن نسلم بها عن طيب خاطر.

إن الوالدين – سواء أرادا أم لم يريدا– هما النموذجان الأولان اللذان يصوغ الطفل نفسه على غرارهما.. وتهمس «الذات العليا» بصوت الضمير الصغير الهادىء. وهنا يقع الاختلاف الجوهرى فى تفسيرنا له .. فإذا عرفنا أننا نملك القوة لخلق هذه الفكرة عند الطفل، فإنه يجب علينا أن نحرص على ألا نجعل منها سيدا متحكما .

لأننا لو فعلنا ذلك – وهو أمر هين علينا إلى حد كبير – فاننا سنعمل على استمرار بقاء ضمير جامد.. ينتمى إلي الجيل السابق الذى نندد به صراحة .

ويجب علينا أن نقلل مثلا عدد المرات التى ننعته فيها «بالولد الشقى» بوصفه تعبيرا لا ضرر منه فى ظاهر الأمر، إذا علمنا أننا لا نقصد أن يحمله الطفل محمل الجد بطبيعة الحال..

ولكنه قد يستقر فى نفسه، وإن كان قد يلوى وجهه أو يخرج لسانه أو يهز كتفيه.. فإذا كان لابد لنا من التنفيس عن مشاعرنا، فالأصح أن نقول : «لقد كان ما فعلته عملا سيئا».

* * *

قد يبدو هذا التفريق تافها، ولكن تفريق هام فى الحقيقة بالنسبة للطفل، فهو فى الحالة الأولي يشعره بعدم رضانا عن شخصه.. أما فى الحالة الثانية فيشعره بعدم رضانا عن القسوة أو النهم أو ما إليهما.

وفكرة : «أن أمى لا تحبنى لأننى شقى» لا يحتملها الطفل، وستسىء إليه فعلا إذا اعتقد هذا حتى ولو كان اعتقاده خاطئا، ولكن عبارة : « أمى لا تحب أن أكون نهما » يمكن احتمالها، وسيبذل الطفل جهده للسيطرة على هذا الميل الذى يراوده.

* * *

ليس من المحقق - بوجه عام - أن هذه الأفكار المؤلمة التى تترعرع في جو يعد انتقاد الطفل فيه هو القاعدة .. ليس من المحقق أن تملأه هذه الأفكار بضروب من القلق التى قد تظهر فى السلوك وتثير المسئولين الكبار أنفسهم..

فتبليل الفراش مثلا، وقضم الأظافر، والكابوس، والانفعال وما إليها، يمكن تتبعها وردها إلى مخاوف الطفل أو إلى خوفه من عدم التوفيق فيما هو بسبيله، أو إلي رفضه لبعض ما يطلبه منه الوالدان مما لا يستطيع.

وسنجد أن أطفالنا يستجيبون بسرعة أكبر إلي مستوياتنا إذا ما أظهرنا لهم بقوة، وفى أحيان كثيرة، مدى سرورنا وفرحنا بأعمالهم وإن كانت ناقصة : «لقد لعبت بهدوء فى أثناء حديثى مع السيدة «ب» فشكرا لك !» أو «اننى سعيد لأنك سمحت للطفل « ل » بأحسن قاطرة تملكها حين كنتما تلعبان بالقطارات .. لقد كان هذا عملا لطيفا منك !» .

فهذا التقدير المرضى الذى يوحى بتقدمهم فى فن الحياة الصعب، يختلف كثيرا عن إعجاب الوالدين اللذين يعبران عنه بقولهما : «إنك ولد (شاطر) !» ويرددان ذلك اثنتى عشرة مرة فى اليوم..

وهذا لأنه ينطوى على ابراز متزن للميول والاتجاهات التى تأمل أن يأخذوا بها، فتصبح جزءا منهم. وإذا ثابرنا على ذلك كانوا على يقين مما يجب أن يأخذوا به.

* * *

وقبل أن نتمكن من الأخذ بأيدى أطفالنا لكى يصبحوا طيبين حقيقة، فقد نحتاج قبل كل شىء إلى تحديد المعنى الذي نقصده من كلمة «الطيبة»، ويجب أن نعمل فكرنا مرة أخيرة فى أن «كونه طيب» لا يعنى أى شىء سلبى، مثل : «أنه لا يسبب أى متاعب»، ويجب أن نتمسك بشجاعة فى محيط جيراننا بأن المستويات التى ننتظرها من أطفالنا تخالف مستويات الكبار.

ويجب أن تصدق رغبتنا فى افساح الطريق لكى يقتربوا من مستويات الكبار فى الوقت الذى يلائمهم، فحينئذ فقط تصح الشخصية وتكتمل.. وحينئذ فقط تخلص الطيبة التى يتظاهرون بها مما فيها من معدن دنىء وتصبح ذهبا حقيقيا.

* * *

الفصل الرابع

العادات تصنع الإنسان

لماذا يتحتم أن يكون الأطفال وقحاء أحيانا ؟..

وماذا نعنيه بكلمة « الوقاحة » ؟

«إن الشيء الوحيد الذى لا أطيق احتماله - أو لا أرضى عنه - هو الوقاحة !».. « هذه وقاحة مكشوفة !».. « أنه سوء أدب صريح !».. هذا هو رأى الكبار عادة حين يميل طفل ما عن الكياسة فى مسائل المجاملة، ويعلن معظمنا الحرب على الطفل عندما يرى أول علامات الانحراف.

والطفل الدارج الذى يصيح فى وجه أحد الكبار قائلا : « اذهب عنى !.. أنا لا أحبك !» ثم لا يلبث أن يشفع هذه الرغبة بأن يدفعه أو يحجب وجهه، يجب أن يوبخ على الأقل بعبارة مثل : « هذا تصرف سيىء !.. أنها وقاحة .. قل أنك آسف ».

وتستمر المعركة، وتصبح مصدر مضايقة وإزعاج لكثير من الآباء حتى ليبدو أنها ستظل مستمرة على مر السنين : «ثم نتطلع حولنا بحثا عن مبررات نفسر بها اخفاقنا فى تصحيح هذا الخطأ :

هل نحن متهاونون أكثر مما يجب ؟ هل هذا هو الوقت المناسب لتوقيع عقاب جدى، أو توجيه حديث جاد إلي الطفل ؟ هل المدرسة الحديثة هى السبب، أم هى الظروف السكنية الحديثة، أم هم الناس الجدد الذين سكنوا على مقربة منا؟.. أم هم أطفال هذا الجيل؟

سنعثر على الإجابة عن ذلك إذا أدخلنا فى اعتبارنا أولا مفهوم الوقاحة .. أنها بالتأكيد لا تعنى أكثر أو أقل من الإخفاق في إدراك ما يشعر به الآخرون،

فالرجل الذى يتجاوز دوره فى الصعود إلي السيارة العامة وقت الزحام ، والمرأة التى تكفل لها جرأتها تخطى دورها إلى البائع، والصديق الذى تعوزه اللباقة فيسبب لنا بانتقاداته كراهية القبعة التى اشتريناها حديثا .

وصبى الرابعة عشرة الذى يقهقه سخرية من تعبير وجه سيدة تغنى، وطفل الرابعة الذى يقول لوالدته حين يرفض شيئا : «أنت عجوز بلهاء !» كل هؤلاء قد أخفقوا عامدين أو كارهين فى وضع أنفسهم موضع غيرهم من الناس.

فإذا ما أدركنا هذا، ظهرت مشكلة وقاحة الأطفال على حقيقتها.. إذ أن وقاحة الأطفال ترجع إلي أنهم لا يعرفون بوضوح خيرا من ذلك، وأول كل شىء أن شعورهم غير الناضج يحول دون معرفتهم أن موقفهم قد يؤذى شعور الآخرين أو يهينهم أو يخجلهم.

ويحدث أن يقع طفل الرابعة، ويظهر أمام الناس لبضعة أيام بجرح تحت أنفه فيسأله نفر من أصدقائه الذين يهتمون بأمره : «ما هذا ؟» فيجيبهم : « إنه جرح، فماذا تظنه؟» فلا يضايقه من الموضوع إلا أنه عطل ما كانوا فيه من لعب، فهو لا يعنيه مطلقا أن يتطلع إليه الناس.

وعلينا أن ننتظر عشر سنوات قبل أن يضطره وجهه المبقع إلي التفكير في اعتزال الناس .. وهو يشير مسرورا صاخبا إلي رجل أسود الوجه يركب سيارة عامة، أو إلي رجل مبتور الساق يتأرجح بين عكازتيه، فتهمس أمه فى أذنه قائلة : « عندما تتحدث مرة أخرى عن أى شخص فاخفض صوتك بحيث لا يسمعه أحد غيرى ..».

– لماذا ؟

– لأن الناس لا يحبون من يتفرس فيهم..

– لماذا ؟

– حسنا، انك لا تحب أن يتفرس الناس فى وجهك، أليس كذلك ؟

– لماذا ؟

والواقع أن الإجابة الوحيدة التى تنهى المشكلة هى عبارة حاسمة مثل : «هذا تصرف لا يليق» أو كلمات أخرى لها هذا التأثير.

وثانيا، إن السلسلة الطويلة من الأشياء التى تحرم على الطفل، يبدو أنها لا تكاد تستوفى جميع المواقف فى حياة الطفل .. فهو يتعلم أن الضيوف يقدم لهم أطيب ما على المائدة من الفاكهة، ولكنه حين يكون بمنزل جده يطلب إليه أن يترك لجده اختيار ما شاء من الحلوى، وهنا يثور غاضبا : « لماذا ؟.. أنه ليس ضيفا!» .

فإذا كان من الوقاحة قول أشياء غير لائقة عن الناس، فقد يبدو له أن قول الأشياء اللائقة يعد وقاحة كذلك !.. فالملاحظات الشخصية محرمة، ومحظور أيضا التفوه بما يعتقد، وكذلك محظور أن يصمت صمتا تاما.. إن الطفل يتقن قاعدة واحدة، ثم لا يلبث أن يجد قاعدة أخرى قد نسختها، ويسمح لأخيه الأصغر بإبداء ملاحظات لا يجرؤ هو على ابدائها..

فتدريب الطفل على عدم الوقاحة ليس إلا تدريبا له على لعبة تختلف فيها الأوامر باختلاف السن والظروف، فيجب ألا يدهشنا أن نجد كتب آداب السلوك العامة سوقا رائجة.

وثالثا، إن نمو الطفل الشخصى يقوده إلي مخالفة قانون عاداتنا وفقا لحاجاته، وتبعا لدوافع الساعة. والطفل الصغير الذى تسره الثروة اللغوية، لا يتردد فى أن يستخدم مع من يكبرونه أو يفوقونه، عبارات وجهت إليه فى مجال التدليل أو المزاح أو الجد.

فهو يحتج على أمه قائلا : «إنك مزعجة» وذلك حين تعترض سبيل قيامه بعملية بناء لطيفة بقوالب الطوب، بأن تقدم له منديلا نظيفا وتطلب إليه فى رفق أن يمسح أنفه..

إن الناس جميعا يستوون فى نظر الطفل - وهو فى هذه السن - وهو يرى من حقه تماما أن يقول لزائر ما : « لا تعترض » كما أنه من حق والديه أن ينبهاه ألا يفعل ذلك.

إن النمو الحر لشخصية الطفل الذي يتم فى السنوات المدرسية الأولى، ورضا الطفل المتزايد نتيجة لقبوله كعضو فى الجماعة .. وأهم من هذا تذوقه الزائد للجانب الفكه من الحياة .

كل ذلك تنجم عنه حصيلة جديدة من الألفاظ المجافية للتهذيب، والاستقبال المدهش الذى يقابل به أفراد الأسرة الآخرون عبارات مثل : «هذه الكعكة تليق بالمعتوهين» يكفل لها التكرار المستمر المؤلم عدة شهور على أكثر موائد الشاى مراعاة للآداب.

ويبدو أن الميل إلي نعت كل شخص بنعت من نعوت التهكم ليس إلا طريقة مرحة لتزجية وقت الفراغ لا يمل الطفل الالتجاء إليها. فتسميات مثل «الغول، والخائب، والعفريت» وما إليها، ليست عند الطفل إلا وسيلة للفكاهة لا يستطيع أن يتبين اشمئزاز الآخرين منها.

* * *

ويخفق دور المراهقة أيضا فى إدخال أى تحسين ملحوظ فى هذه الناحية، فمن المحقق أن كثيرين منا يشعرون أن خطأ الفتيان والفتيات الذين تقدمت بهم السن نوعا هو أشد خطرا من خطأ من يصغرونهم سنا.. ولربما كان السبب الأساسى فى ذلك أن نضجهم الآن قد اكتمل بحيث يرون بوضوح

مدي ما يستطيعونه من إيلام شخص من الكبار الأقوياء ممن تصادف أن ينشب بينهم وبينه خلاف.

فالفتاة التى حرمت من أحمر الشفاه، والحذاء ذى الكعب المرتفع تستطيع أن تثأر لنفسها من القيود العامة فى شخص والديها الضيقى التفكير كما تظن، العتيقى الطراز.. والصبى يستطيع أن يقابل المشاحنة العائلية بالظهور أمام زائر ممتاز فى حالة خطيرة من الاهمال، وجهل مطبق بأخطاء آداب المائدة.

* * *

كثيرا ما تحدث هفوات غير مقصودة مما يتنافى والذوق السليم، وذلك حين تكون استجابات الطفل الاجتماعية غير متكافئة مع المناسبة الجارية. سألت العمة ابنة أخيها المحبوبة، وهى فتاة فى الحلقة الثانية : «هل ارتديت الوشاح الذى أعطيتك إياه ؟» فأجابتها الطفلة : «لا، اننى لا أرتدى أوشحة مطلقا».. فهذه الملاحظة بعيدة كل البعد عن اللياقة، ولكنها ليست شائنة .. وقليل منا من لم يقترف شيئا غير لائق.

ولكن بينما نقبل كل هذا، نجدنا مستعدين لستر ابتسامتنا للملاحظات «الوقحة» التى يبديها الطفل الصغير، ونضحك فى السر لسلاطة لسان أخيه الأكبر وبراعة انتقاداته، ونقاسى من نزوع المراهق إلى الإهمال .. ومع ذلك ربما نشعر بحاجتنا إلي القيام بعمل إيجابى بالنسبة للمشكلة كلها.

ومعظمنا لا يكتفى بمقابلة فظاظته فى الحياة بالاعتذارات، أو تركها مستبهمة عليه إلي المستقبل البعيد حتى يتغلب على متاعبه بنفسه. وسنشعر بالميل إلى عمل شىء لتوجيهه ومساعدته لكى يصل إلى مستوى من التهذيب لا يقتضيه بلوغه - ولا يقتضينا تعليمه إياه - كثير عناء.

* * *

ونستطيع البدء باستعراض ما نعنيه نحن بالوقاحة فى كثير من العناية ..
إن عددا كبيرا جدا من بيننا، يغتاظ حين يعاملنا أطفالنا بفظاظة، ولكن لا نعتبر سلوكهم سيئا حين يجلسون فوق طنفسة أمام الموقد فيحجبون الدفء عن الضيوف،

وحين يصرون على طلب كعكة بعينها وهم على مائدة الشاى، وحين يغلقون الباب بشدة أو يتركونه مفتوحا، ويطلقون صغيرهم طوال وقت العصر، ويقفزون إلي عربات الترام ويهبطون منها، وينادون الخادمة من المنزل المجاور..

فحرى بنا أن يكون هدفنا أن يبلغ سلوك الطفل مستوى عاما محترما، ومناسبا لسنه ونموه، لا أن نعلمه بعض الشكليات كآداب المصافحة وكلمات التحية والمجاملة.

وعلى ذلك، فلأننا نعطف على قصور فهم الأطفال عن مطالب المجتمع فسنتخذ الخطوات للتقليل من أخطائهم إلى أدنى حد، وسنسلم بأن الصغيرة «ت» لا تحب وجنة عمها الشائكة، أو نظارات عمتها المرتجفة، أو صوت الجارة الحاد، ونعفيها من أن يثار غضبها بالتقبيل وعبارات الترحيب والتوديع..

وخير من هذا أن نسرع بها إلى الفراش وأن نقول بلطف نيابة عنها : «طاب مساؤكم» ثم نشرح لهم فى غيبتها أنها خجول، ونحمل هؤلاء الضيوف على الانتظار ريثما تألفهم الطفلة باختيارها.

ونؤكد للصغيرة، «ت» أنها غير ملزمة بأن تحييهم بعبارة : «طاب مساؤكم» إذا لم ترغب هى فى تحيتهم، فإن أحدا لا يهتم بذلك .. إن هذا المسلك سيثير فيها – بصورة فعالة جدا – الرغبة فى اتباع الطريقة المهذبة أكثر من أية طريقة أخرى.

ويمكننا مساعدة الطفل – إبان نموه – على أن يدرك أن ثمة طرقا أخرى

للنظر إلي أى موقف، عدا موقفه.. وإذا اخترنا له أمثلة فى نطاق نظرته، فإنه سيتعلمها بسرعة، فمثلا ضحكاته القوية المجلجلة من الطفل «ر» الذى يبدو بوجهه المتورم يمكن أن نقاومها بقولنا : «أليس من الجرأة أن يخرج ويلعب، فى حين أن ذلك يسبب له أذي شديدا للغاية ؟ أليس هذا تصرفا سيئا منك للغاية؟».

* * *

إن طفل العاشرة ذا الطبيعة المازحة اللطيفة، يجب أن يبصر فى حزم بأن فكاهاته يمكن أن تنقلب إلى فظاظة حقيقية، وأن هذه الفكاهة يمكن أن تتم دون أن تفسد مرح الحياة. ويقال مثل هذا فيما يتصل بالمراهق، فهذا يمكن أن يقال له سراً وبلطف : لماذا كانت ملاحظته جارحة مؤلمة .. وذلك دون أن نشعره بأنه سيكون منبوذا من المجتمع، أو أننا نحمل له حقدا لأنه لم يأت بسلوك أفضل.

وأخيرا، نحن لا نملك خيرا من أن نتذكر أنها ليست المعركة الدائمة ضد الوقاحة هى التى ستنقل أولادنا إلى مجال التأدب، بل هو تأييدنا المستمر للعلاقات المهذبة مع الأطفال ومع ضيوفنا وغيرهم من الكبار على السواء ..

فالطفل الذي «راجعنا» دائما هو الطفل الذى نراجعه باستمرار!.. فإذا ما أقلعنا عن مقابلة الوقاحة بوقاحة، فإنا نجتث بذلك الخطر من جذوره.. وإن سلكنا معه سلوكا مهذبا، فإنا نبصره بأن هناك عملة أخرى يمكن التعامل بها فى الحياة.

طفل فى الرابعة وبخه والده فلوى وجه بصورة مخيفة .. بيد أن أباه تظاهر بأنه لم يلحظ شيئا، فقال الطفل فى تحد وقد زالت من وجهه سحنة التخويف : «ما رأيك فى هذا المنظر إذن؟» فكانت إجابة الأب التى غيرت الموقف : «ليس لى رأى فى ذلك، فلنتحدث فى شىء آخر» .

إن شعور الطفل بالندم على ما اقترفه من وقاحة لا يتم إلا إذا سلم

الطفل من الاضطراب الانفعالى.. أما إذا عنف فى وقت حنقه، فإن ذلك يكون بمثابة صب الزيت على النار، فتقول الطفلة الصغيرة مثلا لأمها حين تعترض على عمل ما من أعمالها : «أيتها البلهاء!» فتجيب الأم دون انفعال : « إنه لمن الغريب أن تقولى هذا!.. اننى مندهشة، أين سمعت ذلك ؟» .

ثم تمر أيام قلائل فتسمع نفس هذه العبارة الدخيلة فتنبهها أمها فى هدوء قائلة : «لا أحب أن أسمع منك ذلك .. ليس هذا بالتعبير اللطيف الذى يقال كما أنه لا يدل على شعور رقيق.. لقد طلبت منك جمع حاجاتك قبل أن أعد مائدة الطعام، ألا تتذكرين ذلك ؟» ويحدث بعد يوم أو يومين أن تسمعها مرة أخرى تصيح : «أيتها البلهـ .... !» ثم تمسك، وتبتسم الأم قائلة : «لقد كنت على وشك أن تقولى : «أيتها البلهاء .. أليس كذلك ؟» فتجيب الطفلة وفى صوتها رنة الظفر: بلى، ولكنى لم أفعل .. أليس كذلك يا أماه ؟»

هذا هو النوع الوحيد الذى يستحق الذكر.. التعليم الذى ينبع من الباطن، أى من الذات التى تنقد وتصوب وتمتدح، والتى إذا ما نمت بنمو الطفل، فإنها تتحول إلى ميل عقلى نحو المسالمة.. وهى أساس كل مجاملة حقيقية.

* * *

الفصل الخامس:

العطاء حياة

كيف نستطيع أن نجعل الأطفال يشاركون غيرهم

ويتعاونون معهم ويعطون مما يشكون ؟

كان طفل فى الثانية من عمره يؤخذ فى صباح كل يوم إلى النافذة لمشاهدة شروق الشمس فى جلالها .. فيقول الطفل وهو يتأملها :

– إن الشمس ترتفع في السماء من أجلى أنا..

وتوضح هذه الملاحظة إلى أقصى حد من الدقة، فكرة الطفل الصغير عن بقية الوجود .. وطريقة تفكير الطفل أكثر بدائية من طريقة تفكير أبناء القرن الرابع عشر الذين كانوا يرون أن الشمس والكواكب السيارة تدور حول الأرض فقط.. أما بالنسبة للطفل الصغير فإن الشمس تشرق له وحده، والكون يدور حوله هو، فهو يقول مع الشاعر : « لففت الأرض سوارا حول معصمى» !

فلسنا بحاجة إذن إلي العجب إذا كان الطفل يظن أن بقية ما حوله خاضع لنفس النظام، فأمه خلقت لنفسه هو .. ولذلك فإنه لا يهتم بما تتطلبه عنايتها من معاونات غيرها، ووسائل هذا التعاون .. ولا بعد ما قد تشعر به من عجز عن تلبية مطالبه، فهو يناديها فى عناد حين تلازم فراشها مريضة لأول مرة خلال سنى عمره الأربع، وتضطر إلى تناول أفطارها بالفراش : «ألا تعتزمين مغادرة الفراش بعد ؟».

ويكون تقدير الطفل للبيت ولجميع الأشياء التى فيه على صورة مماثلة لهذا .. لأنها أشياء مفيدة أو مسلية له، فهو يتحرك طليقا من قيود الزمن والظروف، ويرغب فى التلوين وفى موازنة ورقة، أو وعاء ماء فوق السكاكين والشوك التى وضعت لساعتها على المائدة.

وعلى الرغم من يقينه بأن البيت يرتب وينسق لاستقبال الزائرين، فإنه يمد سككه الحديدية من خلال الأبواب، ويقفز فى أثناء حفلة الشاى التى تقام بمنزل أحد الأصدقاء ليقول أنه يريد الرجوع إلي المنزل !

ولا عجب أن تبوء المحاولات التى تهدف إلي تعديل هذه الأفكار بالفشل. ويبدو على الطفل التبرم حين يقال له أن أمه تشكو صداعا.. وهو يميل إلي اعتبار تذكيره بأن بعض الأشياء التى فى المنزل تخص أناسا آخرين، افتئاتا على حقوقه الشخصية، ومواجهته بأن رغباته يجب أن تؤجل يسبب له شعورا بأن الناس لا يحبونه، كما يثير فيه شعورا حقيقيا بأن الناس يضعون فى طريقه العقبات !

وإذن، فالاعتقاد السائد بأن الأطفال أنانيون بطبيعتهم، وأنهم يرغبون فى تملك كل شىء، وأنهم لا يقعنون إلا إذا قصرنا عليهم اهتمامنا.. هذا الاعتقاد لا حيلة لنا فيه وهو حق إلى حد بعيد.

إن الأطفال أنانيون قبل كل شىء، لأن معلوماتهم عن العالم وعن الأشياء معلومات محدودة، بأضيق الحدود.. وهم يفكرون في أنفسهم لأن معرفتهم بالأشياء الأخرى غير وافية، وطفل السابعة يضحك من طفل الثانية الذي يظن أن الشمس تشرق من أجله، ولكنه قد يعتقد فى دخيلة نفسه أنها تشرق قبل كل شىء من أجل الشعوب العظيمة البيضاء، وأن زيارتها للبلاد الأخرى تأتى فى المرتبة الثانية.

وابن الرابعة عشرة أكثر دقة فى اعتقاده عن المجموعة الشمسية.. ولكنه يشك كثيرا فى جدية اعتقاده بأن لأمه حياتها الخاصة بها على وجه من الوجوه، مستقلة عن واجباتها نحو اصلاح سراويله القصيرة الخاصة بكرة القدم، أو التفكير فى حفلة الشاى الكاملة.

وفوق ذلك، فإن حاجات الطفل ملحة بصورة ربما تغيب عن أذهاننا، فهو يضرب طبقه بالملعقة ساخطا حين يطلب طعامه، ويضيف إلى ذلك صيحاته ورفساته. لقد تعلمنا نحن أن نصير حتى عن تأخر المضيفة المتباطئة .. ولكن الطفل يأخذ ما يريد وحيثما يريد، أثناء لعبه مع الآخرين، فلا يهمه أن يكون ما يأخذه ملكا لطفل آخر يريد أن يلعب به.

ونحن نحترم مائة شىء وشىء من المحرمات دون أن نشعر لأنفسنا فى ذلك بفضل أو نحس ضيقا إذا ما فعلنا ذلك . وأحيانا نتنازل عن حقوقنا - عن طيب خاطر - من أجل الآخرين.

وأبعد من هذا .. فإن كان الأطفال أنانيين، فعلينا أن نسلم بأن هناك أشياء كثيرة فى محيطهم تتآمر على اقناعهم بأن فكرتهم عن الكون صحيحة، وأن من حقهم أن يشعروا بأنهم أصحاب الجلالة..

فكل شىء عندهم يجب أن يكون منظما على هواهم، ولابد إذن من اقناعهم بالقرارات اليومية التى نتخذها، فإذا قررنا ألا نذهب إلى حفل ينتظرون هم الذهاب إليه، وجب أن نفسر لهم السر فى عدم ذهابنا.. كأن نقول لهم أنهم لن يتمكنوا من اللعب هناك، أو أننا مرتبطون بموعد آخر.

وإذا قررنا أن نصنع صنفا من الحلوى، وجب أن نقول لهم أنه من الأنوا ع التى يحبونها والمفيدة لهم.. وإذا قررنا ألا نذهب إلي المصيف هذا العام، وجب أن نشرح لهم الأسباب التى منعتنا من ذلك.

وأخيرا، فإن ضعف الطفل الجسمانى فى عالم مادى قوى يجعل منه بالضرورة الشخص الذى يسلم له بما يريد أكثر منه الشخص الذى يسلم لغيره، سواء بجهده أو بما يملك. ونحن نعطيه من ذات أنفسنا، لأننا يجب أن نفعل هذا.. إن لم يكن لدينا سبب أقوى لعدم العطاء.

ولا ننتظر منه مقابلا جزاء ما قدمنا. ولئن كان شعاره فيما يبدو : « أنت تعطى وأنا آخذ» فإن السبب فى هذا هو أنه فى وضع لا يسمح له أن يعطى أى شىء!

أما موضوع تقديم الأطفال للهدايا وتقبلها الذي يبرز هنا، فهو لا يلاقى ترحيبا من كثيرين من الكبار ويسبب لهم امتعاضا. وهو يستحق عناية خاصة، لا لسبب سوى أن هذا التبادل المادى ذو أهمية كبرى عند الطفل، فالأعياد العامة مثلا، لاشك تبدو للكثيرين منا صورة باهتة إذا قيست بالروح الحقيقية التى يأخذها بها الطفل..

وأعياد ميلاد الأطفال تلى الأعياد الأخرى فى الأهمية كمناسبات عظيمة يحصل فيها الطفل على مايريد. وكثيرا ما تفسد هذه المناسبات السارة -بالنسبة للطفل- بعض المواقف الكريهة التى تبدو منا وإن كنا نود أن ننساها..

فكم من المرات تقطع هتافات فرح الطفل صيحات الكدر، فلا يكاد الطفل أن يقول فرحا : «هذا ما كنت أريده» حتى يعقب فيقول : «ألا يمكن أن أستبدل به غيره ؟»».

واضح أن تعليم الطفل «فن المنح والعطاء» من ذات نفسه ومما يملك - وهو الشىء الوحيد الذي يجعل الحياة تستحق العيش - سواء لنفسه أو لمن يتصل بهم من الناس.. هذا التعليم يجب أن يأخذ بعين الاعتبار أوجه النقص فى طبيعة الطفل.

فبالنسبة إلى معرفته بالعالم وحاجته إلى التعاون مع الآخرين، سوف يتكفل به الزمن إلي حد بعيد .. فالطفل كما رأينا سيصحح أفكاره - ومن بينها فكرته عن المجموعة الشمسية - كما أن كثيرا من مفاهيمه الخاطئة سوف تتضاءل غالبا دون أن يشعر.

ومع ذلك فإنا نستطيع عامدين اعطاءه هذا النوع من المعرفة عن الوجود ولكن كجزء من كل، وأن نحل بالتدريج - منذ سنيه الأولى - الحقائق محل الأوهام.

والعائلة هى المدرسة الطبيعية المثالية لهذا التعليم .. فمولد طفل جديد مثلا يعد حدثا يضطره إلي النزول من عرشه، ولكن اعتزاله العرش يجب ألا يكون مؤلما، إذ يمكننا مساعدته على الابتهاج بتدليل الطفل الجديد وتحقيق أعظم مسرة يمكن أن يظفر بها فى عائلة كبيرة العدد.

وإظهارنا الميل إلى اعتبار الآخرين، وحرصنا الطبيعى على الصالح العام، لا صالح فرد معين - وهو جزء من الحياة المنزلية الطبيعية - كل هذا سيغريه أكثر من أى شىء آخر، علي أن ينمو في نطاق العائلة وأن يساهم فيها بنفسه، ومما بوجهه هذه الوجهة الاجتماعية أن يسمعنا نقول : «سيكون والدك متعباً عندما يرجع إلى البيت، فلنقرب مقعده من المدفأة..

لقد صنعت هذه الحلوى من أجل «م» لأنها ليست بصحة جيدة .. يجب أن نحتفظ بطابع البريد الأجنبى هذا ونعطيه لـ «ب» لأنه يعنى بجمع الطوابع».

هذا هو نوع الجو الذى يجب أن يحاط به الطفل يوما بعد يوم، حتى لو كان هو الطفل الوحيد.. لأن ذلك ينمى شعوره الكريم نحو الآخرين، هذا فضلا عن أننا نستطيع أن نضيف إليه الاقناع المباشر، لا ننهيه عن الأنانية، ولا بانتزاع لعبه عنوة من بين يديه لاعارتها للآخرين.. بل بتوضيح ما فى إعارة الآخرين من لذة.

ومثال ذلك أن نقول له : «هل أستطيع استعارة مقعدك لحظة لأصعد فوقه إلى الستارة .. إن ارتفاعه مناسب تماما .. هذا ما كنت أريده بالضبط» فتوضحينا عمليا للخدمة التى نريدها، مع قدرة الطفل على تقديم هذه الخدمة، يحفزه على تقديم المعاونة فى ظرف آخر، وسيسره إذا قبلناها.

وسيتعلم كذلك بسرعة أن يخفف من الحاحه فى الطلب إذا ما عالجناه بفطنة، ونستطيع تعليمه تلك الكلمة السحرية «حالا» منذ أن يأخذ فى الصراخ لأول مرة فى طلب الطعام، بأن نهتم دائما بعدم التأخر وقتا طويلا بين الطلب والاستجاب، .

ثم كلمة «بعد قليل» وهى الكلمة الأخرى التى يمكن أن يتعلمها الطفل قبل أن يستطيع النطق بكلمة واحدة بزمن طويل، وسيرضي عن أخذ علبة الحلوى بعيدا عن عينه، إذا كان ذلك يعنى حقا أننا سنعيدها إليه بعد قليل لا أن نتعمد تناسيها، وهذا هو الأمر الهام فى الموضوع.

وكلما تقدمت السن بالطفل، يمكن أن تصبح مطالبنا منه أكثر عددا وأشد ضغطا بالنسبة لقوة احتماله.. ولذا يجب ألا تكون مطالبنا بغيضة بالمرة، وأن تصحبها كلمة تفسير أحيانا، وابتسامة دائما، كأن نقول له : «ليس الآن .. هذا الشيء لأخيك، وهذا لك .. ينبغى أن أسمح لـ «ب» أن يستعيد سيارته الآن. وأن تأخذ أنت عربة البضاعة مقابل ذلك..».

وهكذا نتقدم خطوة بعد خطوة نحو فكرة المشاركة والتعاون والتناوب. والاستغناء .. وهى الأفكار المسلم بها لمواجهة المقاومة الطبيعية التى يبديها الطفل ضدها، لأنه يجد المشاركة والتعاون والتناوب هى الوسائل الوحيدة التى تستقيم معها الحياة..

فالبنت التى ترفض أن تمسك بطرف الحبل لكى تستطيع زميلتها أن تقفز، سرعان ما تجد أنها خسرت دورها فى القفز هى الأخرى !.

ونستطيع أن نبصر الطفل أيضا – بمضى الزمن – أن الآخرين سيأتى دورهم مثله تماما ليكونوا موضع إهتمام العائلة : «انه عيد ميلاد الأم، ولذا فسنقيم لها حفلا» فهذه الزاوية الجديدة للنظر إلى الأمور ستعينه على اعتبار نفسه جزءا من الكل، لا أكثر ولا أقل أهمية من الآخرين.

وفى هذا الدور، سنطلب منه أن يؤدى خدمات يكافأ عنها مكافأة معقولة.. فى غير مبالغة فى المديح، على أن يقابل رفضه بسرور، لا بعبارة «اذهب ونفذ ذلك فورا !» أو بعبارة جارحة كقولك : «أبعد كل ما فعلته من أجلك!» بل بعبارة هادئة : «حسنا، سأقوم أنا نفسى بهذا العمل ..

إنه لمن المؤسف أن أوديه أنا فى الوقت الذى أضع فيه أخاك الطفل على حجرى !» وتنفيذ هذا العمل بسرعة يشعر الطفل - أسرع من أى شىء آخر- أنه فقد ميزة القيام بشىء لصالح شخص آخر!.

ماذا يمكن عمله لمساعدة الأطفال على القيام بواجب الشكر عن الهدايا التى تهدى إليهم، أو بالأحرى الشعور بالامتنان بها، وبالرغبة فى نفس الوقت فى قبول الهدايا والرغبة فى تقديمها للآخرين؟.. إن كلا الأمرين، العطاء والأخذ بسماحة، يترابطان فقط عند الطفل الذي عود على معنى العطاء .. الطفل الذي يفهم إلى حد ما شعور الحب والحنان الذى يحفز شخصا ما على أن يعطى .. هذا الفهم هو الذي يغير عبارة : «انظر ماذا عندى !» العنيفة إلى عبارة : «انظر ماذا أعطتنى عمتى !» فهذا الفهم هو الذى يجدر بنا أن نغرسه فى نفسه .. وحينئذ فقط يظهر الطفل تقديره للمعطى، كما يظهره بالنسبة للهدية نفسها.

وسيجد هذا الإطار العقلى تدريجا - بطبيعة الحال - مكانا فى بناء هذا الميل الذى وصفناه، ولابد أن يكون هذا الميل صرحا يحتاج بناؤه إلي الكد، وألا يقوض لدى أول زفرة من زفرات اليأس أو الحقد .. فمن اليسر كل اليسر أن نشرح مثلا للأطفال الصغار، إن كل شخص يجب أن يشارك بنصيب فى تقديم وقبول الهدايا.

ويمكن بعد حديث طويل القيام بسرعة بحملة موفقة لشراء هدايا مختارة لغيره من الأطفال، وبعد قليل يسمح دون شك بالوصول إلى المشكلة الكبرى،

وهى ماذا سيختار الطفل لنفسه؟ لنقول له مثلا : «عليك أن نفكر بعناية فيما تفضله على غيره.. إنه لمن العسير أن تختار من بين مجموعة اللعب كلها، فدعنا نلق عليها نظرة فاحصة».

قد نختار للطفل لعبة غالية الثمن، ولكن علينا أن نواجه مشكلة أنه يريد لنفسه لعبة قد تكون أقل ثمنا مما اشترينا له.

فإذا وضحنا له هذه الحقيقة فى اناء وصبر، فلا يعز عليه أن يحضر ورقة وخيطا، ويرسل الهدية التى طمع فيها إلى طفل آخر.

ومع ذلك فإن ما نقرره هو الذى يجب أن يسمعه الطفل فى شكل ملاحظة لا تعقيب عليها، فقولك وأنت تغلف هدية من الهدايا فى عيد ميلاد طفل آخر : «فى عيد ميلادك، سيقدم لك الهدايا كثير من أصدقائك الصغار»، سيؤكد له أن هذا الوعد سيتكرر عدة مرات خلال الشهور المقبلة .. ولذا فإننا سوف لا نأسى حين يحل يوم الاحتفال، إذا ما جلس طفلنا فى مكان المضيف يتسلم الهدايا المعتادة، محييا كل ضيف بعبارة : « ماذا أحضرت؟».

ومسألة منحه الهدايا لعدد كبير من الناس فى مناسبة ما تحتاج أيضا إلى تقدير دقيق، إذ لا فائدة تذكر من منحه خمسة قروش أو عشرة لشراء بعض الأشياء التافهة لأقاربه الكثيرين، فى حين أنه يعلم تمام العلم أنهم سيردون إليه هديته فى معظم الأحوال بعشرة أمثالها.. وليس بخير من هذا أن يعكف على عمل كمية من مقابض اللفافات أو نتائج التقويم لكى يوزعها على مدى واسع، بدافع أنه : « يجب أن يهدى شيئا ما».

«إن ما يعتد به هو الفكرة» لأن الفكرة هى الشىء الوحيد الذى يبقى أثره ونستطيع غرسها فى الطفل.. وقد نقترح عليه - بين حين وآخر - أن يستعرض لعبه ليختار من بينها ما يمكن أن يعطيه للأطفال، على أن نطرح

جميع الهدايا التى تلفت بحيث لم تصبح ذات نفع له أو لأى طفل آخر، ويستطيع هو أن يفكر يتعقل فيما يمكن أن يستغنى عنه !

- اننى لا أحب فى الحقيقة الاحتفاظ بهذا الدب الصغير بعد ذلك، إذ لدى دب كبير، أليس كذلك ؟..

- بلى .. وأنا متأكد أنه سيروق طفلا آخر.. كم سيدهش الأطفال حين تفتح ربة البيت هذه الحزمة!

- ماذا ترى ستقول ؟..

- ستقول : من يحب هذا الدب الصغير ؟.. فيجيب بعض الأطفال : أنا..

وتجرى القصة على هذا الوجه .. ينصت المعطى الصغير، وينتهى فى شعور هادىء إلي فقدان لعبته ليحل محلها تجربة جديدة هى الإبتهاج بالعطاء، وهو لا يحتاج إلى المغالاة فى امتداح عطفه، لأنه سيكون سعيدا بما أعطى.

ويسوقنا هذا إلى مسألة مساعدة الأطفال حتى يشعروا بعاطفة العرفان بالجميل، أو ما يقصده الكبار من قول : « أشكرك».

وكلما ابتعدت السنون بالطفل عن عهد البراءة، فقد تصادفه مناسبات كثيرة تعجز فيها الهدية عن اشباع آماله، وهنا سنجد مرة أخرى أن الطفل الذى طاف بالدكاكين الرخيصة محاولا العثور على شىء يمكن أن توافق عمته على شرائه له، سنجده يستطيع بسهولة أن يفسر تفضيلها شراء مقلمة خشبية على شراء القلم ذى الخزان الذى كان يأمل فى الحصول عليه..

وقد يصاب بخيبة أمل، ولكنه يغتصب الابتسامة اغتصابا، وربما يفكر فى أن مشبك الشعر الذى اشتراه لها لم يكن اختياره موفقا.. وربما لايزال يجد في كتابة خطابات «الشكر» شيئا من الضيق، ولكنه قد يرغب - على أى حال - فى كتابتها من الناحية النظرية، وهو فى هذه الحال أيضا يعد متقدما على الطفل

الذى لا يرى سببا لكتابة مثل هذه الخطابات، لأنه هو نفسه لم يتعلم مطلقا أن يعطى !.

وبقدر ما يشتهر الأطفال بالكرم، فيمكن أن يكونوا أنانيين أيضا.. بيد أن هذا يتوقف كثيرا على تعهد البذرة بالرى –وهى صغيرة فى حجم بذرة الخردل.

إن هذا البذل من ذات النفس – دون مقابل – هو ما ينتظر الأطفال أن يتعلموه، وليس علينا إلا أن ندلهم إلى الطريق.

* * *

الفصل السادس :

اللعب فى الحياة

لماذا يلعب الأطفال ؟ ما فائدة اللعب؟

وهل له صلة بنموه الجسمانى والذهنى؟

كم من مرة تصرخ الأم الغاضبة فى وجه طفلها قائلة : «اذهب بعيدا عنى والعب».. ويا له من خطأ -بل من أخطاء- ترتكبها باستعمال هذه العبارة!.. وأول هذه الأخطاء هو أن الطفل يفسرها تفسيرا «صحيحا» أى : «اذهب بعيدا ولا تضايقنى - فأنا لا أريدك الآن بالقرب منى!» ولهذا فهو يدور حول أمه مكتئبا قلقا - كالذبابة الطنانة - لكى يطمئن نفسه أنها لم تطرده إلى الأبد !

ومع ذلك، فبصرف النظر عن هذا الخطأ البالغ الخطر.. فهناك ما تنطوى عليه هذه الكلمات من أن اللعب الذى يمارسه الطفل لا أهمية له - كما هو الحال حقيقة فى معظم الأوقات - فيجرى الحديث عن لعب الأطفال ويتم اختيارها من هذه الزاوية - فيقال عنها: « إنها لمجرد اللعب بها .. أنها ستجعله هادئا .. لكى يلهو بها فقط».

ولا شك أن نظرتنا إلى الوسيلة التى يقضى بها أطفالنا الشطر الأعظم من حياتهم الواعية لما ينذر بالخطر .. الشطر الذى يساعد أكثر من أى شىء آخر على اكتمال نموهم، فاللعب هو المجرى الرئيسى الذى تتدفق منه معرفتهم بالعالم.

ومن خلال اللعب، يكشفون دائما عن أشياء جديدة فى أنفسهم، وفي العالم الذى يعيشون فيه، ويتعلمون كيف يصبحون سادة البيئة التى تحيط بهم.. فكيف يمكن إذن أن يفشل لعب الأطفال فى أن يكون مصدر فائدة والهام

دائمين بالنسبة إلينا؟.. انه كتاب حياة أطفالنا الذى يظل مفتوحا ومعدا لكى نقرأه ونتعلم منه.

يجب أن يلعب الطفل بكل طاقته إذا كنا نريد له أن ينمو نموا كاملا، وأن يفهم مدى المعاونة الكبيرة التى يؤديها اللعب فى نمو شخصيته .. وحرى بنا أن نقدر ما لذلك من أثر نافع فى كيانه الثلاثى : ذاته المادية، وذاته العقلية، وذاته العاطفية.

وأثره فى الذات المادية، أى الجسم، هو الأثر الذى يقام له وزن فى المعتاد، ويقدمه الوالدان وصناع اللعب على السواء، وتدرك كل أم مدى سرور ابنها الطفل الصغير حين يرفس، فتهيىء له الفرص لمثل هذا النوع من النشاط الطليق ..

ولكن هناك ميلا فى كثير من الأحيان إلى الحد من نشاط الطفل الدارج فى خارج المنزل، كالسير فى الأسواق الشعبية أو فى الشوارع التجارية المزدحمة حيث يجب أن يمسك بأيدى الأطفال أو يوضعوا فى العربة.

إن إتاحة الفرص الكثيرة أمام الطفل الصغير ليعدو ويقفز ويتسلق أمر ضرورى، والإجابة الوحيدة الصادقة التى يستطيع أن يجيب بها الطفل المتململ على أحد الساخطين من الكبار حين يسأله : «ألا تستطيع أن تجلس فى هدوء؟» هى : «لا.. لا أستطيع..»

ويحتاج الطفل الصغير أيضا إلى فرصة لتنمية الحركات الجسمية لليد والأصبع والعين على وجه أدق.. ولذا يجب أن نعطيه أشياء مختلفة يعالجها بالاصبع وباليد، وهى أشياء لا تقتصر بحال على اللعب الجاهزة.

فالطفل الصغير يجب أن يستمتع بمحاولة وضع الرباط في فتحات حذائه، أو وضع سدادة فى فوهة الزجاجة، أو غطاء على صندوق، أو دفع بكرة خيط

فارغة على قضيب غير حاد أو سحبها منه. ويشعر الطفل بغبطة لا حد لها إذا ما أعطى طست ماء وابريقا ووعاء صغيرا أو اثنين مختلفي الحجم والشكل.

وانك لتدهش للسرعة الكبيرة التى يتعلم بها الطفل الدارج اللعب بهذه الأشياء دون خطر وبطريقة مناسبة. كما أنه يكتسب قدرة السيطرة على أول قطعة من المادة، ثم يثنى بغيرها.

وهناك أشياء لا يحصيها العد فى المنزل توحى بأنها أشياء «قد يحب الطفل أن يلعب بها» لا مجرد أشياء تجعله يظل هادئا. ويمكن أن يضاف إليها أشياء أخرى أوفر عددا وأكثر تعقيدا كلما تقدمت به السن.

ولابد أن يبتهج كل طفل «لا الصبيان وحدهم» حين يتعلمون طرق استخدام آلات قليلة بسيطة. ولئن كانت قد مضت هانئة سعيدة، تلك الأيام التى كنا نتوقع فيها من بنات الخامسة الصغيرات تطريز المخرم بالابر الدقيقة والخيوط القطنية، فإنا نستطيع الآن أن نعطيهن الخيوط الصوفية البهيجة الألوان، والتكاكة، لتطريز الخيش أو القماش الخشن الذى يروق لهن استخدامه.

وواضح أن اللعب بهذه الوسائل يساعد على نمو الجسم الرشيق القوى، وعلى الحركات المتقنة البارعة .. ولكن قيمته فى إشباع الذات العقلية ليست أقل أهمية من ذلك.

– فيم يستخدم هذا يا أماه ؟.. كيف يعمل ؟.. أين ؟.. متى ؟.. وهكذا تنهال عليها الأسئلة دون توقف، ويبدو أن كل إجابة تمهد الطريق لسؤال آخر، وتتساءل الأم المرهقة عما إذا كانت أسئلة طفلها الذى يبلغ الثالثة من عمره، ستقف عند حد !.

ومع ذلك فإن الطفل كثير الأسئلة – فى دور ما قبل المدرسة – ليس إلا الطفل الذى كانت أصابعه اللزجة تتوق إلي لمس كل شىء .. وهو بدوره، ذلك

الصبى الذى سيعود من المدرسة إلي بيته متأخرا فيما بعد، بسبب توقفه فى الطريق لمشاهدة ملاسة بخارية وهى تعمل. إن النمو العقلي للطفل يبدأ مع النمو الجسمى فى نفس اللحظة التى تحمل فيها أمه .. فلابد للطفل أن يشبعه بكل ما فى طاقته من وسائل، باللمس والسؤال والملاحظة والمشاركة. ولذا يجب أن نوفر لأطفالنا فى المنزل مادة اللعب التى تحفز قدراتهم العقلية.

ويسر معظم الآباء والأمهات لفكرة تعلم أطفالهم.. فهم يريدون رؤيتهم «متقدمين»، ويرغبون فى تسجيل دلائل نجابتهم .. ولذلك يجتذبهم لعب الأطفال المتسم بالنمو فى ضوء هذه النظرة أكثر مما يجتذبهم اللعب الذى لا يزيد على كونه «مجرد لعب» ومن ثم فهو «مضيعة للوقت»!

ولكن اهتمام الطفل الدائم بكل تجربة جديدة، مهما صغر شأنها فى العالم المحيط به، هو بداية كل تعلم .. كما تعرف كل أم أن طفلها قد يتوقف عن اللعب بأدق لعبة لكى يسألها : « ماذا تفعلين ؟» ويتبع ذلك مباشرة بقوله : «أريد أن أفعل ذلك أنا أيضا».

وفى حين أن هذا يفسر أحيانا الرغبة فى المزاملة، فهو يكشف كذلك عن رغبة الطفل فى أن يكون له دور فيما تعمل، ولذا فهو يرغب فى نعلم القص، وتقطيع الفسائر، الفطائر البلاط، وغسل الكرنب، واشعال الثقاب، وقصارى القول دخول الحياة المحيطة به عن طريق النشاط والمشاركة.

وبهذه الطريقة يجمع الطفل من خلال اللعب، طائفة من الحقائق عن الحياة المادية، ويبدأ فى فهم شىء من الغازها .. فهو يتعلم أن الاسطوانة «علبة» تتدحرج إلي الخلف وإلى الأمام، ولكن «الكرة» تتدحرج فى كل اتجاه، ويكتشف أن الكرة المصنوعة من مادة معينة – كالمطاط – تنط، وأن كرة من مادة أخرى – كالصوف – لا تنط، كما يكتشف أن قالب الطوب يجب أن يوضع مستويا

فوق قالب آخر لكى يتوازن، ولكنك تستطيع أن توازن عصا بوضعها على محور فى المركز.

وسيتعلم شيئا فشيئا مئات من الحقائق المجردة فى صورة مادية، وإن كان يعجز تماما عن صياغتها فى كلمات .. وتصبح الدنيا العظيمة التى يعيش فيها.. الدنيا التى لا يجدها غير دنيا تحدث فيها الأشياء دون انذار .. دنيا تشتعل فيها النار، وتهرس أنامله الأبواب، وتتحطم فيها الأطباق .. الدنيا التى كانت تبعث فيه الرعب بسهولة، تصبح شيئا مفهوما، فيستطيع أن يتصل بها لأنه كشف أسرارها.

إن المثل القائل : «الأشياء الصغيرة تفرح العقول الصغيرة » قلما يضرب الا فى مجال التحقير، ولكنه مثل يجب أن نتعمقه .. فالأشياء الصغيرة وحدها هى التى تسر الأطفال، لأنها الأشياء الوحيدة التى يتشربها العقل الصغير .. وهذه الحقائق الهائلة عن الحياة تعد عادية بالنسبة إلينا لأننا عرفناها منذ عهد بعيد.

ولكن لا يوجد - بالنسبة للطفل - شىء عادى للغاية أو تافه للغاية بحيث لا يختبره، أو يستكشفه أو يسأل عنه، إن كل شىء يلمسه يضيف شيئا جديدا إلي خبرته .. وكلما كانت هذه الخبرة أوفر، كان شوقه أعظم لمواجهة عالم المدرسة الأكثر غموضا. وهذا الشوق هو الذى سيحمله قدما ليقتحم كل دور من أدوار نموه فيتخطى كل العقبات، وينقله من هواية إلى هواية.

وسيقوده حب الاستطلاع المنهوم قدما كأنه السراب الخادع.. ورغم تحسرنا أحيانا على تآخره، إلا أن هذا هو الذى يحدث كل الفرق بين الطفل الذي يبدى إهتمامه بالأشياء والطفل الآخر المتقاعس.

وقصارى القول، بأن للعب قيمة للذات العاطفية لم يكشف عن مداها

برمته غير الطب النفسانى الحديث فى السنوات المتأخرة: «فلتلعب فى المدارس، حيث لا أمهات، ولا آباء !». وتتشاحن المجموعة الصغيرة برهة حول من يقوم بدور المعلم، ومن يقوم بدور الطفل، ثم يستقرون على اللعب وهم يتناقشون ويتعاركون، ويغيرون اللعبة وهى على أشدها أو يبدءونها من جديد.

وكثير من الآباء والأمهات الذين يشاهدون هذه الألعاب يدهشون - دون شك - للسبب الذى يدفع الأطفال إلي العودة إليهم مرارا وتكرارا .. إنه عالم متعب ذلك الذى يصطنعونه فى خيالهم .. عالم لا يكف فيه الطفل عن الصياح، والأم عن الجلبة، والتلاميذ عن العنف، والمعلمون عن اليأس. ومجمل القول، عالم فيه كل التلاميذ سادة، والكبار مجانين، أما بالنسبة إلى الأطفال الكبار والعنيدين، فقد تتساوى حالاتهم.

ويمكن أن يطلق على الألعاب : «عسكر وحرامية» أو : «رعاة البقر والهنود الحمر» ولكنها جميعا تتبع نفس الأساليب، فكل شخص يعمل لحساب نفسه، وسلوكهم ملئ بالعدوان، وكل منهم يناضل الآخر.

ولكن لماذا يحدث هذا؟.. والجواب هو أن الأطفال يجدون فى هذا النوع من اللعب تفريجا لعواطفهم التى لا يتهيأ لها فى معظم الأحيان هذا التعبير.

ونحن معشر الكبار لا نكاد نشعر تقريبا بالخجل من الطريقة التى نبدو بها أمام الأطفال، فهل نتذكر مرة بصفة جدية أن العالم يبدو فى نظر الطفل الدارج مغمورا بالعمالقة .. عمالقة يجرونه فجأة من رجليه لغير ما سبب ظاهر، ويحملونه بجسمه إلي حيث يريدون ؟.. ومع أن حمل الطفل قد يكون محببا إليه أحيانا، وقد تغمره القبلات.

ولكنه فى أحيان أخرى قدل ينتزع فى الوقت الذى يكون فيه منصرفا بكليته إلى بعض مناشطه الخاصة.. فلا عجب إذا رأيناه يصرخ فى كثير من

الأحيان ويناضل حتى يوضع على الأرض !.. لابد أنه يحس بانعدام قوته، وأنه يخاف فى بعض الأحيان من الكبار.

وحتى حين يكبر أو ربما حين يصبح فى طول الشخص المكتمل، يبدو له كأن الكبار عمالقة لما يتوفر لهم من القوة، وأن لهم الحق فى قول : نعم، أو لا، وحق المنح والمنع.. ومهما كان من للأطفال وانصافنا لهم، فمن الطبيعى أن يشعر الطفل الآخذ فى النمو بالحنق علينا قبل أن يستطيع التعبير عنه بوقت طويل، فإذا ما وافى دور المراهقة، وشعر بقدرته على اظهار هذا الحنق يتألم كثير من الوالدين ألما حقيقيا، ويدهشون فى أول الأمر.

ولذا فإنه من الضرورى لصحة الطفل العقلية أن يكون قادرا على التعبير من خلال اللعب عن شعوره نحو الناس .. وهذا ما يفعله بطبيعة الحال فى الألعاب المصطنعة التى سبق ذكرها.

إن الأطفال يلعبون بدافع من شعورهم بالسعادة، ومن رضاهم عن الحياة أيضا، ولكنا لا نهتم بهذه الألعاب. أما الألعاب الأخرى التى يتعاركون فيها ويتحاربون ويغتاظون فهى التى تتأهب تماما لوقفها بقولنا : «الآن كفى أيا الأطفال!.. عاملوا بعضكم بعضا باللطف!».

ومع ذلك فإن كثيرا من نواهينا لا تكون مفهومة لدى الطفل .. كنزوة الأم التى تقمع الطفل لسبب غامض في نفسها. وهذا حسن، إنه يحبها ولكنه لا يستطيع أن يعاقبها.

ولكنا حين نجد دبه مقلوبا رأسا على عقب فى سلة المهمات، فلتتأكد تماما أن الصبى الصغير الذى وضعه هنالك، إنما انتقم من الدب بسبب شىء هو نفسه كان يريد أن يفعله.

ولعله كان يحتج عليه لو كانت له القدرة على الاحتجاج. فنحن حين نحرم

الطفل على الدوام من شيء هو في أشد الحاجة إليه، وهو الحب – فإنه بدوره يحرم غيره من الأطفال من لعبهم ويتشاجر معهم ..!

ونحن أنفسنا نعلم، أن من أحسن الطرق للتخلص من نوبة الغضب أن نمزق صندوقا أو ننفض سجادة، لأن الشعور الذي نحسه خلال سيطرتنا على شيء آخر يمحو شعورنا بالغضب، ويشعر الطفل نفس الشعور تماما، فتطويحه بلعبته عبر الحجرة أو قفزه على لعبة، يمنحه الشعور بالثقة في أنه يملك السيطرة على بعض الأشياء على الأقل!

وليس معنى هذا بالطبع، ضرورة السماح للطفل بتحطيم ما يريد تحطيمه.. ولكن يمكن أن يسمح له في الزمان والمكان الملائمين أن يصخب وأن يلقى الأوامر على الآخرين، وأن يتشاحن مع غيره بطريقته الخاصة .. ولذا فإن كثيرا من هذه الألعاب التلقائية المصطنعة تمنحه الارتياح الذى يحتاج إليه.

كأن تتاح له الفرصة كي يثبت لنفسه أنه ليس في واقع الأمر ضعيفا، وأنه يستطيع كذلك معاقبة الآخرين والسيطرة عليهم.. ولكن هذا الشعور العدائى يساير مخاوفه الغامضة من العالم الذى يعيش فيه.

ونكرر مرة أخرى، أنه مهما بلغ حبنا وهدوءنا، فلن نستطيع أن نمحو من الأطفال الخوف كلية، لأنه جزء من ميراثهم البشرى .. ولكنا نراهم يعبرون عن هذه المخاوف في اللعب، ويسيطرون عليها إذا ما سمحنا لهم باللعب في حرية كاملة. وحين يقترب منا طفل دارج فيقول : « أنا أسد، وسأكلك كلك » فهو يدعى لنفسه أن لديه هذه القدرة، فإن أظهرنا شيئا من الخوف يلائم اللعبة .. فانا بذلك نساعد على منحه هذا التخيل، لأن قدرته على « تخويفنا » تجعله يشعر بضآلة الفرص التى تسمح لأى شيء آخر أن يخيفه.

إن جميع الألعاب الخطرة، كتسلق الجدران، وموازنة الجسم فوق لوح

خشبى يصحبها صيحات مثل : «انظروا إليّ !» لكى يظهر له الجميع إعجابهم ويسلموا بشجاعته .. ويستطيع الكبار مساعدته على خير وجه، كأن يسمحوا له بالقيام بقسط معتدل من هذه الألعاب الخطيرة بدلا من ضرب كف بكف، وصياحنا :«انزل حالا ... ستؤذي نفسك».

إن اللعب بالنسبة للطفل بمثابة صمام الأمان لعواطفه، وهو أبلغ وسيلة للافصاح عن شعوره لأنه لا يملك التعبير عنه بكلمات. وإذا تأملنا رسوم طفلنا ولاحظنا ما يكونه، أو أصغينا إلى حديث طفلتنا إلي عرائسها، لعرفنا الكثير عن دنيا طفلنا الباطنة.

أن اللعب الذى يساعده على تنمية جسمه وعقله سيساعده كذلك على تنمية ذاته العاطفية، وقد يكون هذا الوجه أقل الوجوه وزنا فى نظر الكبار، ولكنه على الأرجح أكثرها أهمية .. إذ يتوقف على توازن مشاعر الطفل إزاء العالم، كل سعادته المقبلة وسعادة الآخرين، ويحق لنا أن نقول مع الطفل : « أن اللعب مدخل الحياة ».

* * *

الفصل السابع :

العالم قوقعتى !

إلى أى مدى ينبغى أن نهتم بهوايات أطفالنا؟

وما هى الهوايات التى ينبغى أن نشجعهم على ممارستها؟

قليل من الأطفال ممن تزيد أعمارهم على العاشرة أو نحوها هم الذين ليس لهم هوايات أيا كان نوعها، ومعظم هؤلاء الأطفال يؤكدون أنهم يزاولون عدة هوايات .. ولا شك أن كل طفل فتى فى العقد الثانى من عمره قد ترك وراءه تاريخا من جمع طوابع البريد والنقود وبيض الطيور وأغلفة علب الثقاب وما شابهها، وكل من هذه كان موضع حماسته فترة ما، ثم لا تلبث هذه الحماسة أن تتراخى بسرعة قليلة أو كبيرة.

ويقابل شدة تحمس الأطفال لهواياتهم عادة، عجز في عطف معظم الكبار عليها .. فالهوايات بالنسبة للطفل إهتمامات ظامئة تشغل كل دقيقة ممكنة من وقت الفرا غ إبان تحمسه لها، أما بالنسبة للكبار فهى تكديس لأشياء تشغل كل ركن بالمنزل : قصاصات من الورق المقوى، وشريط للصق، وعينات من الفراشات والديدان ميتة وحية، وحفنات كريهة الرائحة من الأوراق اليابسة، ومن رؤوس الجزر النامية، وتبدو معظم هذه الأشياء كأنها ليست إلا رموزا لآمال بعيدة عن التحقيق.

ومع ذلك فإن هوايات أطفالنا– أو بعبارة أعم مناشطهم فى وقت الفرا غ– ينبغى أن تكون أشياء – إن لم تكن موضع حماستنا – فينبغى عندئذ أن تكون على الأقل موضع عطفنا، بل وعطفنا المخلص، لأنها تفسر بطريقة ما أن ليس فى حياة الطفل شىء غيرها : فهى من اختياره الإرادى الحر لما يجب أن يفعله بنفسه.

وهذا وحده يجعلها إلي حد كبير، ذات أهمية لا تقف عند حد، لا بالنسبة للطفل وحده الذى يقضى جل حياته فى تنفيذ ما يريده الآخرون، ولكن بالنسبة لنا أيضا ممن يرغبون فى معرفة الطفل معرفة أوفر.

إننا لا نقدر دائما كيف أن حياة أطفالنا يتحكم فيها أناس آخرون، فيومهم مخطط على الوجه التالى: وقت للاستيقاظ، ووقف لارتداء الملابس، ووقت للأكل، ووقت لعملهم بالمدرسة، ووقت فى النوادى .. كل هذه تختار لهم فى معظمها .. وبالرغم من أن كثيرا منها قد يكون ملائما لهم، ولكنه ليس منبعثا فى الأصل بدافع قوى من الاختيار التلقائى !

* * *

فالقاعدة إذن أن يرى الناس ابننا كما نريده أن يكون .. جالسا إلى مائدة - فى أدب وهدوء - فى البيت ليأكل، أو إلي مكتبه فى الفصل ملتفتا باهتمام إلى سبورة ولو كان عقله يتابع شيئا آخر، هذا هو الولد الذى نريده. ولكن الولد الذى يلطخه الزيت والدهن، ويقضى ساعة قبل النوم فى انتزا ع عجلة دراجته وإعادتها مرة أخرى، فهو الولد الذى يريد هو أن يكونه ..

فهو لا يهتم ببقايا الشحم، ولا يريد إلا أن يكون ذلك الولد لمدة أربعة أسابيع، ومن ثم يأخذ فى صيد السمك بنفس الرغبة .. إنه وقته هو الذى يخصه وحده دون سواه، يأخذ فيه من العالم ما يروقه، ويعطيه فيه شيئا يحس أنه يستطيع أن يعطيه، إن خطأ وإن صوابا.

ولهذا السبب وحده، كانت كل هواية عظيمة القيمة، مهما بدت لنا عابرة أو تافهة .. ولربما تستغرق الوظيفة التى سيشغلها فى المستقبل جهوده طوال المدة الباقية من حياته، ولربما تكتشف مواهبه الدفينة.. ولكن الهواية التى يختارها لنفسه تشبع فيه رغبة خفية لايستطيع أن يعبر عنها بطريق آخر.

وقد ينمى عن طريقها صفة لا تجد لها متنفسا فى المدرسة أو في المنزل .. وعلينا أن نتذكر فى هذا الصدد بعض الأمثلة الخالدة، مثل الصبية «فلورنس نيتنجيل» التى دأبت على تضميد جراح الحيوانات الأليفة والسهر على مرضى قريتها. والطفل «هاندل» الذي كان يتسلل من فراشه ليصعد إلى الطابق العلوى ويعزف على البيانو، أو مثال الصبى «جيمس وات» الذى أخذ يراقب بافتتان، غطاء الغلاية - وهو يعلو ويهبط - وحسبنا أن نتحقق من أن هذه « الهوايات » من أعظم الأشياء فائدة فى حياة الفرد.

* * *

ومع ذلك فيجب ألا نكون مستعدين للسماح بهوايات أطفالنا، لمجرد أنها قد تكون بذورا لنبات قوى فى المستقبل .. كأن نسمح للطفل «ج» بالتسكع فى المحطات ليعود آخر النهار إلى المنزل بمذكرة ملأى بأرقام القاطرات، لأننا نأمل أن هذا سينتهى به بطريقة غامضة إلى منصب كبير فى السكك الحديدية، بل ينبغى أن نقبل هذه الهوايات بوصفها شيئا أكثر أهمية من مجرد قيمتها النفعية.

وأن ننظر إليها كأنها امتداد لاهتمامات الطفل بالعالم المحيط به، وأنها تصل إلى أبعد من مجرد كسب العيش فى الحياة اليومية. ويجب أن نعتقد مع الشاعر أن وقت الانتظار والتأمل قد يكون خير وقت نقضيه فى سبيل الوصول إلى أثمن الكنوز.

وواقع الأمر، أن حياة الطفل الاجتماعية ستفيد من إهتمامه بوقت فراغه أكثر مما تفيد من عمله المهنى. والمثل القديم القائل : «العمل دون لعب يخلق طفلا غبيا» مثل مناسب فى هذا المقام، وكلنا يعرف ذلك القلق المخيف الذى يستولى علينا حين نقابل أناسا أفقرت حياتهم الروحية، بحيث لا يستطيعون أن يتحدثوا إلا عن عملهم ..

كما ندرك أيضا مدى الفائدة التى نستخلصها من خلال حديثنا مع غيرنا ممن يقضون أوقات فراغهم فى تربية النحل - مثلا - أو كشف المغاور، أو كتابة المآسى وتمثيل المسرحيات، ونسج الملافح وما إلى ذلك ..إن الذين يوسعون آفاق شخصيتهم إلى أبعد نطاق هم الذين يغترفون من الحياة بكلتا اليدين!

وأخيرا، فلعل أقوى مبرر لتشجيع الوالدين لأطفالهم على الاستمرار في ممارسة هواياتهم - وإن كانت فى الواقع أقل قيمة من الاعتبارات السابقة - هو ذلك التحذير القديم : «إن الشيطان ليوجد عملا للأيدى التى لا تجد ما يشغلها» ولسنا بحاجة إلى المبالغة فنهنىء لأولادنا مائدة للعبة « البليارد» لنبقيهم فى البيت.

ولكنا نستطيع أن نتأكد تماما أن الأولاد الذين «لا يجدون ما يعملون» أو الذين ليس لديهم إمكانيات لعمل ما يريدون عمله بالمنزل، هم الذين يتسكعون على نواصى الطرق وأيديهم فى جيوبهم.

* * *

وإذا كنا قد اقتنعنا الآن بأن الهوايات أبعد ما تكون عن الشر، وأنها في الواقع ضرورية لنمو الطفل، وخاصة عندما يشرف على دور المراهقة، فإن نظرتنا إليها سوف تتغير .. وسنجد أننا منعنا أنفسنا من ترديد العبارات الممقوتة مثل : « ما هذه التفاهات السخيفة التى تمارسها ؟» وسنكف عن اتهام الأطفال بعدم الرغبة فى العمل.

بل على العكس ، سنجد أنفسنا مضطرين - حرصا على فائدتهم - إلي الاستماع إلى جميع مشروعات الأطفال من صنع العرائس الصغيرة، وبرامج خيال الظل، أو جمع مبالغ من المال لعلاج الحيوانات المريضة .. ونعتبر أن من

واجبنا أن نستجيب للأطفال حين يطلبون شراء قطع من الحرير اللامع، أو كميات من الصحف النظيفة، أو شيئا من معجون الدقيق، أو بعض الدهان الجديد.

وأن نعاونهم قدر طاقتنا.. على ألا نضع فى أيديهم مبالغ غير محدودة من المال، وننتظر حتى يعودوا بالمواد ثم نبدأ بالعمل، بل يجب أن تكون مساعدتنا لهم متعقلة، فنقول للطفل: «لننظر كم يمكننا أن نتفق فى هذا الباب .. إنك لا تستطيع أن تحصل على كل ما طلبت، أن عندى بعض الخشب، وعلى ذلك يمكنك أن تعمل منه ما تريد».

وبالإضافة إلى ذلك، ينتظر منا بطبيعة الحال أن نظهر إعجابنا بكل دور من أدوارد العملية، وأن نصفق إعجابا بالنتيجة النهائية، ولكننا سنشعر على الأقل أننا نشجع إهتماما نشيطا يمس الحياة نفسها .. وبالتالى نكسب معرفة أكبر عن أطفالنا، لكى نفهم حقيقة أين تكمن مواهبهم.. وما يتميز به واحد منهم من مهارات، وما يتميز به آخر من حذق، وثالث من صبر، ورابع من قدرة على الإبداع.

إن هذا معناه الغرور، فنبتسم راضين عنه ومن خطل الرأى أن نوحى كل نزوة أو خيال يطوف برءوس أطفالنا ونبارك كل مشروع رخيص .. ولكن الجدير بالذكر هو أن ندرك أننا لن نجنى من النقد أية فائدة ما لم نكن معهم على صلات ودية كافية حتى يأخذوا بهذا النقد فى مشروعاتهم .. فعبارة قارسية مثل: «مهما حسن ظنك فى أن ما تعمله سيفيدك، فأنا لا أظنه كذلك» قد تقابل بالصمت، ولكنه صمت يحرمنا من ثقتهم فى المستقبل..!

* * *

ومع ذلك، فإذا كنا نأسف على ساعات العمل التى تقضى فى لصق

صور نجوم السينما الجميلة فى كراسة أنيقة، فإنا نستطيع أن نبدى قسطا وافرا من السماحة عند الإعجاب بالجهد الذى يبذل فى تنسيقها .. فإذا ما فعلنا ذلك، فإن موقفنا يقوى بحيث يسمح لنا بأن نقترح توسيع مجال الهواية ..

كأن يهتم القائم بعملية الجمع بتكوين مجموعة لمشاهير الناس التى تحمل أسماءهم أخبار الصحف، أو بعمل كراسة قصاصات لتوضع فى حجرته .. ولربما تقاوم اقتراحاتنا، وقد تعلن الطفلة أن هدفها هو جمع صور النجوم على الدوام، وفى هذه الحالة لا يضيرنا أن نشير إلى مهارتها واتقانها للعمل، وسيبقي معها هذا النوع من المعرفة أو المهارة بعد أن تختفى الهواية نفسها. وينبغى أن نكون عادلين تماما لنعرف أنه لا يحق لنا أن نطلب من طفل أن يوقف عمل شىء اختار هو أن يعمله دون أن يكون لدينا شىء آخر يشوقه ليحل محله.

وهناك نقطة أخرى مخيبة لأمل الكبار فى موضوع الروايات، وهى طبيعة الأطفال المتقلبة التى أشرنا إليها.. فنحن نشكو من أنه لا يكاد يبدأ فى شىء حتى يتركه إلى شىء آخر. والشىء الذى يجب أن نتذكره هنا، هو أن الهوايات بطبيعتها إنما هى ضرب من ضروب المغامرات القصيرة الأمد - فى مرحلة الطفولة على الأقل - ولا يستثنى من ذلك سوى حالات قليلة جدا.

وهى فى جوهرها تعتمد على التجربة.. فهذه المحاولات المترددة الأولى التى يقوم بها الطفل لتحصيل ما فى الأرض من ثروات هائلة، تستهويه الواحدة منها فيختزنها لحظة، لكى ينبذها حين تلوح واحدة أكثر جاذبية منها ..

أنه يبدأ بجمع الفراشات - مثلا - ثم يكتشف أنه لا يحتمل قتلها فينتقل إلي الطوابع، ثم يضيق بالأكداس من نسخها المتكررة فينقلب إلى الكيمياء، ولكنه يفاجأ بأنه لا يستطيع أن يستخدم المواد الكيميائية التى يريدها، وحينئذ قد يشترى أرنبا فيجد فيه تسلية قد تربطه به.

حقيقة أن جنون الهوايات يستمر بعد الالحاق بالمدرسة ، ونحن نشعر أن الطفل إنما يتبع نظاما وضعه الآخرون، وأن كل هذا لا يؤدى إلى غاية.. وحينئذ قد نتريث لنتأمل إحصائيات الفصول المسائية الخاصة بهوايات الكبار. فنجد أن هذه الفصول تبدأ مكتظة فى الخريف، ثم تنخفض إلي النصف فى الشتاء عندما يتبين التلاميذ أنهم فى الحقيقة لا يهتمون بها..

وأقوى من هذا دليلا إذا تأملنا تلك الأعداد من القطع التى لم تكمل من أشغال الإبرة والحياكة التى تحتويها الأدراج، وأشغال الأزهار الصناعية التى بدأناها بحماسة بالغة، والمعدات التى جهزناها لطبع القماش فلم تلمس الا نادرا .. حينئذ نستطيع أن نشعر بأن أطفالنا قد لا يكونون جاوزوا الحد فى تقلبهم !

وهناك ما نستطيع عمله إذا شعرنا أن أطفالنا لا يستقرون مطلقا على حال فى الاختيار .. فكثيرا ما يطيل إهتمامنا من عمر الهواية، كما أن كثيرا من الأطفال ينصرفون عن هواياتهم لأنهم لا يشعرون بأن أحدا يهتم بها. ولربما كانت عبارة عابرة مثل : « ألا تريني مدى ما وصلت إليه فى صنع نموذج الطائرة الذى كنت تصنعه» حافزا قويا لاتمام العمل.

* * *

وتهجر المشروعات كذلك فى غالب الأحيان، حين يواجه الطفل عقبة يشعر أنه عاجز عن التغلب عليها.. فإذا كنا على أهبة معاونته فى التغلب على هذه الصعوبة، فوجهنا فتاة إلى عمل عقدة صغيرة فى أشغال الإبرة، أو أرشدنا صبيا إلى طريقة تنظيم مجموعته المضطربة من طوابع البريد بأن يتخصص فى جمع طوابع وطنه فقط، فلربما استمر الطفل فى هوايته بأمل مجدد.

فمن خلال الهوايات اتصل كثير من الأفراد اتصالا حقيقيا – وعلى أكبر جانب من الأهمية – بالعالم، ووجدوا أن الحياة جديرة بأن يحيوها. ولا يستطيع

أحد أن يقدر ماذا سيفيد طفلنا فيما بعد من حصيلة تجاربه .. ولعله من الحماقة حقا أن تحاول حصر هوايات الطفل فى أشياء تختارها له .. فمما لا شك فيه أنه كلما كبرت حصيلة حصاد الطفل، استطاع بدوره أن يزرع فى نطاق أوسع وآفاق أرحب.

* * *

الفصل الثامن :

الطفل يضع قانونه بنفسه

إلى أى مدى ينبغى أن يسمح للطفل بالاحتفاظ

بذاتيته؟ وكيف تنمو شخصيته نموا سليما ؟

بحثنا في الفصول السابقة أثر الحياة على الطفل، وكيف يحاول أن يتكيف تبعا لمطالبها، وكيف يمكن أن يعاونه على التكيف أو يعطله عنه موقف الناس الذين يعيشون فى بيئته المباشرة. كما رأينا مدى أهمية اللعب كعامل يساعده أن يكتشف عالم البيئة وعالم نفسه.

وكيف يساهم نشاطه فى أوقات الفراغ فى توسيع دائرة معارفه عن العالم وتعميقها، وقدرته على البذل من ذات نفسه. ويبقى علينا فى هذا الفصل الأخير من هذا القسم، أن نعالج أهم العوامل جميعا، وهو شخصية الطفل الفرد التى تميزه عن بقية الأطفال عامة.

وأول شىء ينبغى أن نتذكره، وأجدره بالإهتمام، هو أن الأطفال يختلفون فى استجابتهم للموقف الواحد تبعا لتفاوت أعمارهم .. وهى حقيقة بديهية لا حاجة لتأكيدها لولا أننا نقابل فى كل ساعة وفى كل ناحية حالات واضحة، لم تنس فيها هذه الحقيقة فحسب، بل لم يكن يقام لها أى وزن.

فمثلا، أُم في سيارة عامة مزدحمة فى آخر النهار، لا تكف عن توبيخ صغيرها الصاخب قائلة : «ألا تجلس ساكنا؟.. اهدأ!.. كن مهذبا» وليس هذا الطفل المسىء فى الرابعة أو الخامسة، وليس بالطفل القوى البنية الذى يتصوره المرء جالسا على حجر أمه، ولكنه مجرد طفل صغير فى نحو الشهر الثامن من عمره، ولا يزال فى دور الطفولة الأولى!

ولا شك أن فى الموقف ما يثير الضحك إلى أبعد حد .. سيل من الكلمات الخالية من أى معنى ينهمر على رأس طفل برىء، ولكن هناك أيضا شيئا محزنا، فأقل ما يقال فيه أنه من المؤسف أن ترى أما لا تدرك إطلاقا مبلغ طفولة صغيرها، ومع ذلك فبيننا كثيرون على شاكلتها لا يحبون لأطفالهم أن يتصرفوا بما يناسب أعمارهم !

إن الخطأ الذى نرتكبه، هو أننا نعتقد أن أبناءنا متعبون جدا .. لا لشىء سوى أننا نتوقع منهم أن يكونوا أكبر مما يستطيعون، فنعاقبهم لقصور لا يملكون له علاجا .. فالطفل الذى كان بالسيارة العامة – مثلا – لعله بدأ لتوه فى الشكوى، وأصر على مواصلة البكاء ..

ومع ذلك فلو كانت أمه قد حملته وتركته يتطلع من فوق كتفها لحظة، أو لو أنها أعطته بعض المفاتيح «ليخشخش» بها – أو على الأصح لو تركت طفلها يتصرف فى نطاق سنه – لكانت فى الواقع قد جعلته سعيدا ولا نقاد لها فى المدة الباقية من الرحلة.

وشبيه بذلك شكوى الأمهات مما يلقينه من متاعب فى اطعام والباس أطفالهن، ومع ذلك فإن هذا كله ناجم من أننا نهتم جد الإهتمام بأن «يتصرفوا تصرفا لائقا» أى كتصرف الكبار.. والطفل فى دفاعه عن نفسه يظهر تحديا وعنادا يقتضيان عدة شهور أو سنين لكى يقلع عنهما. ولربما تحب الأم لطفلها أن يكبر بسرعة، ولكن الطفل يرفض فى حكمة أن «يكبر» قبل أن يكون مستعدا لذلك !

ويستطيع المرء أن يسترسل فى ذكر حالات كثيرة من هذا النوع .. والواقع أننا يجب أن نكون على الدوام منتبهين لمعرفة ما إذا كانت بعض تصرفات الأطفال التى نعترض عليها ليست هى فى الواقع التصرفات الصائبة

لهذه السن المعينة. لقد كان لاحدى الأمهات ابنة فى التاسعة من عمرها، وكانت تدخل معها فى جدل لا نهاية له، لأنها تعود إلي بيتها من المدرسة وهى تحجل وتقفز، ولا تمشى مشية السيدة!..

وأم أخرى ظنت أن ابنها - وهو في الثانية من عمره - بحاجة إلي استشارة طبيب متخصص، لأنه دائم الجرى لا يهدأ.. ومع ذلك كان كل من الطفلين فى الحقيقة يسلك مسلكا طبيعيا مناسبا لسنه!

والعكس صحيح بطبيعة الحال .. فهناك آباء وأمهات يدللون أطفالهم، فهذا صف من الناس ينتظر سيارة عامة، وفى مقدمته سيدة مع ابنها المدلل الذى يبلغ الرابعة عشرة من عمره .. فلما وصلت السيارة، دفعته الأم إلى داخلها قائلة :«إليك مقعدا يا «ج»».. فاحتل الصبى المقعد بسرعة.

ومعظم الناس يرون أن أقل ما كان يتوقع من هذا الصبى أن يهتم باجلاس أمه أولا، بل أن كثيرين كانوا ينتظرون منه أن يحرم نفسه من الجلوس، إذا لزم الأمر، لكى تجلس سيدة أخرى !

ومحافظة الأم على طفلها التى تعد أمرا حيويا جدا عندما يكون الطفل صغيرا، يجب أن تقل تدريجيا حتى يتمكن الطفل من النمو.. وبعض الآباء والأمهات لا يحبون أن يلعب أطفالهم مع غيرهم من الأطفال حتى لا يلحقهم أذى أو تهديد، وهم يبررون إهتمامهم «بحملهم» المدلل بقولهم : «إنه كل ما أملك» أو : «أنه ضعيف البنية» أو : «أن الأطفال الذين حوله غلاظ جدا» ومثل هذا التصرف يؤخر الطفل ولا يساعده على بلوغ مستواه والتغلب على نقائصه.

وكذلك يعتذر بعض الآباء والأمهات عن نقائص أطفالهم لأنهم لا يريدون التسليم بأن أطفالهم سيكبرون، ولابد أن يتحسن سلوكهم.. فقد يسخر صبى فى العاشرة من جاره، وتضحك الأم .. وتصف عمله هذا بأنه دليل على ذكائه،

وكان ينبغى أن تنتظر من هذا الصبى فى الحقيقة بادرات المجاملة وتشجعه على التعبير عن تفوقه بوسائل أخرى.

والسؤال الذي يبرز أمامنا الآن هو كيف لنا أن نعرف، هلى ندفع أطفالنا إلي أمام أم تجرهم إلي خلف ؟.. هناك ثلاثة أشياء يمكن أن تساعدنا على ذلك:

فثمة القراءة عن الأطفال وعن نوع السلوك الذى يمكن أن نتوقعه منهم .. وإلى جانب الكتب المؤلفة عن نمو الطفل، فهناك مكاتب الارشاد فى عدد كبير من الصحف والمؤسسات، يديرها متصصون فى هذا الميدان .. وكذلك الأحاديث التى تذاع أحيانا، ومناقشات التليفزيون، كل ذلك يضيف إلى معلوماتنا عن المشكلات الشائعة بين الوالدين والأطفال.

أما الطريقان الآخران، فهما أكثر أهمية وربما كانا أبعد أثرا، لأنهما يتصلان مباشرة بالأطفال أنفسهم .. فعلينا أن نصغى إلي حديث أطفالنا نحن، وأن نلاحظهم، ونوازن بينهم وبين غيرهم ممن هم فى نحو عمرهم بقدر ما نستطيع من أمانة.

وليس معنى ذلك أن نقارن بين «س» وجارتها «ج» التى تأتى لتناول الشاى معها مرة كل أسبوع، وأن نزهو لأن «س» لا تنسى قط أن تقول : «من فضلك» إنما معناه أن نقارن الطفلة «س» صراحة بعدد كبير من الأطفال فى سن الخامسة ممن لا نعرفهم، ولكن ممن نقابلهم فى المتنزهات والمتاجر ..

وعندئذ قد نواجه طفلة نتبين أنها كثيرة الصراخ غضوب - بالنسبة لغيرها من الأطفال - فنسأل أنفسنا عما إذا كنا قد شجعناها على أن تسلك هذا السلوك .. لأننا كنا شديدى المحافظة عليها أو أننا لم نحافظ عليها محافظة كافية !

أما الطريق الآخر، وهو أهم الطرق جميعا فهو أن الطفل نفسه يمكن أن يدلنا على خير وسيلة لمعاملته .. وهناك اتجاه فى الوقت الحاضر إلى الأخذ بمبدأ أن الطفل يعرف ما هو صالح له، ليحل مكان المبدأ القائل بأن الكبار هم الذين يعرفون صالحه.

وقد لا يكون ما يعرفه الطفل صالحا تماما، ولكنه ينطوى على قدر كبير من الصحة، فإذا قال طفل «من فضلك يا أماه اصحبينى إلى المدرسة.. أو من فضلك اتركى النور مضاء فى أثناء الليل، فإن السبب فى ذلك هو أنه نفسه لا يشعر بأنه كبير أو شجاع بالقدر الذى يجعله فى غنى عن هذه المساعدة الإضافية، لأن الأطفال يكبرون بنسب متفاوتة تفاوتا كبيرا، بحيث لا نتوقع أن يصلوا جميعا إلى نفس المستوى – من حيث السلوك – في نفس المدة، ويجب أن ندرك أن الطفل نفسه هو وحده الذى يعرف حقيقة ما يشعر به.

قد يظن أن في هذا ما يشبه التناقض مع قاعدة المقارنة بين أطفالنا وبين غيرهم من الأطفال، ولكن ذلك ليس صحيحا.. فالأطفال الآخرون يعطون الصورة العامة للأطفال فى سن الخامسة، فى حين أن طفلنا « ر » يكمل تفاصيل ما ننتظر منه خاصة .. وذلك أنه قد يزاول كل تجربة جديدة باحتراس في حين أن صبيا آخر فى جهة أخرى لا يخاف شيئا ويقتح كل شىء !

ويقودنا هذا إلى مشكلة ذلك الكائن الاسطورى أو الطفل «المتوسط» ، فهذا الطفل غير موجود فى الحقيقة، ومع ذلك فإن كل مصدر من مصادر المعلومات يتحدث عنه لأنه مقياس خيالى يمكن أن يقاس عليه الأطفال الآخرون .. ولذا فإن الأم الحديثة العهد تعرف أن الطفل المتوسط فى سن كذا يجب أن يزن كذا، وأن يكون عدد أسنانه كذا، وأنه يستطيع أن يحبو، وهكذا.. وهى تلاحظ في قلق مدى مطابقة طفلها لهذه الأوصاف.

وإذا كان الطفل – لحسن الحظ – أكثر من الوزن المتوسط، وله سنتان زيادة عن العدد المشاهد فى مثل عمره، ويستطيع أن يقف، فإنها تشعر بالرضا، وربما بقليل من الزهو، لأنه «ضرب الرقم القياسى»، ولكنه إذا لم يصل إلي هذا المستوى، فإنها تمتعض وتقلق، وتقضي الوقت فى محاولة تعليم طفلها الوقوف، وترهقه بالكعك الشهى لكى تبرز أسنانه، وتستهجن جارتها إذ تسألها بقصد برىء :.« ألم يحب بعد ؟»

بيد أنها لو عرفت عددا كبيرا من الأطفال من نفس سن طفلها، فستجد على الأرجح كثيرين منهم متخلفين عنه أو متقدمين عليه فى النمو.. فإذا استطاعت تتبعهم على مدى السنين، فسوف تجد أن الغالبية العظمى منهم سيكبرون على الأسلوب المناسب ويصبحون كائنات بشرية طبيعية .

إن طريق التغذية – والطرق المألوفة فى تربية الأطفال – تقوم جميعا على أساس حاجات الطفل المتوسط، ومع ذلك فإن المرء تقابله حالات – أكثر من أن تكون مصادفة – أهملت فيها هذه الطرق، ومع ذلك فقد شب الطفل سليما . وقد بولغ فى التسليم – دون مناقشة – بقيمة اللبن بالنسبة للطفل، ولكن الإنسان يقابل نماذج عادية من الأطفال الصغار، ويسمع أنهم لم يطعموا قطرة واحدة من اللبن منذ فطامهم !

ويترقب الولدان الكلمات الأولى بشغف، ويبتهجون لكل جديد بضيفه الطفل إلي مجموعة كلماته .. ويتطلب إلى الطفل أن يقول للأصدقاء «مع السلامة» لكى يثبتوا لهم مدى تقدم الطفل، ومع ذلك فإن طفل الخامسة الذى لم يسبق له النطق بكلمة واحدة، يبدأ على حين فجأة النطق « بجمل كاملة » فى مدى أسبوع واحد !

وأمثال هذه الحالات – مهما كانت أسبابها – ترينا أن كثيرا من قلق الأم الذى لا يقوم على أساس، يرجع إلي اعتقادها فى «الإجراء القياسى»

ومع ذلك فإن أخطر عامل فى هذه الناحية ليس هو قلق الأم، ولكن فى أنها تنقل قلقها هذا دون أن تشعر إلى الطفل نفسه .. فاللحظة الكئيبة أى لحظة صب اللبن فى الفم، وقلقها عما إذا كان سيأكل طعامه من الكرنب اليوم أو سيرفضه.

وذلك الغضب الظاهر الكبت حين يرغب الطفل عن الكلام.. كل ذلك يلاحظه الطفل ويشعر به، وينفعل له انفعالا مماثلا واضح المعالم، وقد لا يكون انفعاله من طبيعة انفعال الأم، ولكنه سيترك آثارا عميقة مدمرة لشخصه ولعلاقته بأمه.

ومن المرجح أن كثيرين منا قد خبروا مذلة رؤية أطفالهم عاجزين عن عمل ما يستطيع أن يعمله كل طفل سواهم، فنحن نصحبهم إلي اجتماع فلا يرغبون فى الاشتراك فى لعبة « البرتقال والليمون» مثلا، بل يرغبون بدلا من ذلك فى تتبع جهاز التسخين المركزى من أوله حتى الطابق العلوى ونأخذهم إلى حديقة الحيوان، حيث يصرخ كل طفل سواهم طالبا أن يرفعوه لمشاهدة السباع وهى تأكل، فى حين يظل ابننا فى الخارج يراقب العصافير وهى تهبط لالتقاط لباب الكعك.

وانك لترى فى كل اجتماع تقريبا، يضم الأطفال والوالدين، نفس المعركة الصغيرة التى تنشب بأحد الأركان.. الأم منحنية على طفلها تتملقه، والطفل جموح عنيد : « لماذا لا تفعل أنت مثل هؤلاء الأولاد والبنات جميعا ؟.. ألا تريد أن تفعل مثلهم ؟.. ولكنه شيء لطيف .. انظر ! كلهم .. إن كل واحد إلا أنت .. لماذا لا تفعل ؟».

الحقيقة أنه لو كان أطفالنا يسلكون كما يسلك معظم الأطفال لشعرنا بالإطمئنان .. أنهم أطفال عاديون. ونحن ننسى امتعاضنا من طفل الثامنة حين نقترح أن تكون صديريته فى الشتاء من اللون الأخضر القاتم، فيحتج قائلا :

«آه، لا .. أرجوك يا أماه، ليس هذا باللون المناسب.. إننى لا أستطيع فى الغالب، أن .. جميع الأولاد الآخرين يرتدون ..» نحن هنا نكره فكرة أن يلازمه اللون الرمادى طوال حياته، ومع ذلك نخشى أن يبدو كشخصية متميزة المعالم إذ يثور على السلوك الشائع فى بعض المواقف فيبدو شاذا عن الآخرين، ويجب ألا يفوتنا مطلقا أن الطفل الذى يسلك سلوكا مخالفا للآخرين قد يكون سلوكه هذا صالحا له شخصيا.

إن «عقيدة القياس » تعتنقها فى غالب الأحيان الأسر التى تضم أطفالا عديدين .. فالوالدان يتوقعان أن يكون أطفالهما كأسنان المشط سواء، فالأخ الأكبر يلام لأن أخاه الأصغر تظل ثيابه جافة ليلا فى حين أن ملابسه لا تكون كذلك، ونتبع ذلك بقولنا :

«انك تستطيع أن تكون مثله إن أردت»، ويستثار الأصغر لكى ينافس الأطفال الذين سبقوه بالمدرسة فيما أحرزوه من نجاح باهر، كأن نقول : «عليك أن تعمل بجد أكثر من ذلك إذا أردت أن تكون مثل «ب» ..

إنه لم يكن غبيا فى الحساب »، ومع ذلك فهناك عائلات تسعدنا معرفتها لا لشىء إلا لأن أفرادها نشئوا نشأة فردية، لم يفرض عليهم فيها نوع واحد من التربية.

قد يكون طبيعيا أن يدهش الوالد لدمامة ابنه الصغير الذى لا يشبه اخوته الباقين، ويحاول بنجاح كبير أو قليل أن يحوله من «قرد» إلى «غزال»، وأقل من ذلك بداهة – وإن كان أكثر شيوعا –

أننا نتوقع أن يقلد الطفل آخرين فى الاستعداد لعمل معين، فإذا أبدى – مثلا – رغبة فى العمل فى الفلاحة، قلنا غاضبين : «هذا هراء، إننا لم نسمع بشىء من هذا .. إن أعضاء أسرة «ن» ينخرطون دائما فى سلك الجيش»

وننسى أن حب الطفل الحقيقى للزراعة ولتربية الحيوانات هو الدافع الفعال، بل الأشد الحاحا من شرف الجندية !

أن الفوارق الفردية هى التى ينتج عنها أثمن ما فى الكائنات البشرية – الفرد – ومع ذلك فكثيرا ما نبذل قصارى جهدنا لمحوها. وذلك بأن نهزأ بالطفل، ونلفت النظر علنا إلي تقاسيم وجهه المضحكة فى أثناء الكتابة مثلا، فنقول : «ماذا تظنه يفعل الآن؟ أنه يكتب قصة ..

وهو بطبيعة الحال لا يجيد الهجاء، ولا يستطيع أحد أن يقرأ خطه!» وعقب ذلك نجد الطفل يطوح بمخطوطاته جانبا ويشترك مع الآخرين فى اللعب أو مشاهدة التليفزيون، وشيئا فشيئا ننجح فى قتل «هوايته» وننحدر به إلى مستوى«العاديين».

ولاشك أن المستوى العادى يعد مرشدا، ومن الغباء أن نهمله جملة فلا نفيد من الشواهد التى يقيمها .. فالطفل الخجول يحتاج إلي ملاطفة لكى يلعب مع غيره من الأطفال، كما يحتاج إليها الطفل المنطوى على نفسه لكى يشترك فى الأعمال الودية مع الآخرين. ولسنا بحاجة إلى ترك الطفل الصغير المشاكس لكى يتحكم فى السرب كله، بقصد أن نترك لأطفالنا فرصة النمو في حرية، ولكن ينبغى أن يدور إهتمامنا وابتهاجنا حول إدراكنا المبكر بأن نحافظ على الفروق الفردية التى تجعل كل طفل من أطفالنا محبوبا، بخاصة، لكونه شخصا قائما بذاته .. فإن تثقيفه ونمو شخصيته نموا سليما، ثروة له وكسب للمجتمع أيضا.

الباب الثانى

الطفل فى المنزل

* ما مدى أهمية البيت ومن فيه كأساس لدخول الطفل إلى العالم الفسيح ؟

* وما مدى التغيير الذى نتوقعه فيه إزاء بيئته المباشرة كلما تقدم به النمو؟

الفصل الأول :

اليد التى تهز المهد ..

لماذا وكيف تكون الأم أهم شخص بالنسبة لطفلها؟

وما حقيقة الدور الذى تلعبه فى حياته ؟

نذكر الأم وطفلها، ويتجه إليهما التفكير عادة بوصفهما وحدة واحدة .. ولكن من المرجح أن هناك أمهات كثيرات، بالرغم من قيامهن بقسطهن فى إضاءة السبيل للطفل يشعرن بأن الدور الذي يؤدينه للطفل يبالغ كثيرا فى تقديره، وهن يحنين رءوسهن لهذا التقدير، ولكنها انحناءة أشبه ما تكون بانحناءة ممثلة ارتفعت شهرتها بين عشية وضحاها، فهن يقابلن مقتطفات الصحف - فى هذا الصدد - فى دهشة هادئة.

وتسلم الأمهات بالطبع بالأمر الواقع حين ينادى الطفل : «ماما» فى غير انقطاع فى جميع أرجاء المنزل .. «ماما، أين أنت ؟.. ماما، اننى أريدك ؟.. ماما، انظرى، لقد كسرت العجلة، وفقدت حذائى، ولا أستطيع العثور على كيسى .. أن أنقى تدمى..» .

وقد اعتاد الأطفال أن يسرعوا إلي فتح الباب، ثم يلى ذلك كلمة : «آه» مصحوبة بزفرة يائسة، ثم : «أين ماما؟». والأمهات مضطرات إلي التسليم بقيمتهن فى إصلاح أزرار الملابس واعداد الطعام وتقديم الخيط والورق المقوى، ومصروف الجيب، والكتف الذى يبكى من فوقه حين لا تريد «ت» أن تلعب، ولأن ابن الجيران كان جافا فى معاملتها.

والأمهات على اختلافهن إما زاهيات وإما ضجرات وإما فخورات، وهكذا دواليك، ولكن قد يتشككن مخلصات فيما يوحى به اليهن من أنهن العامل الأهم والوحيد فى حياة الطفل سواء أردن ذلك أم لم يردن.

ومع ذلك، فالواقع أن الأم (ولأجل هذا الغرض تعنى كلمة « أم » الأم المتبنية، والمربية، والجدة، والخالة أو العمة، أو كائنة من كانت ما دام الطفل يعيش فى كنفها) تصبح فى وقت مبكر الكائن الوحيد الضرورى للطفل، لا لشىء إلا لأنها تحقق له حاجته البدنية ..

فخطوتها وصوتها ولمستها، كل ذلك هو أول ما يعرفه الطفل لأنها جميعا تعنى أن العون فى متناول يده، فهو إذ ذاك يطعم أو تغير ملابسه أو يعمل له شىء ما يريحه من ألمه. فهى التى تدبر له أمره وتبتسم له .. وهى إذ تفعل ذلك يقابلها بابتساماته لأنها تجلب إليه الراحة والسعادة.

ومن هنا كان دورها حيويا منذ عهد الرضاعة وتساقط اللعاب. وكلما كبر الطفل أصبح مجال أهميتها أوسع من مجرد الرعاية الجسمية. وهو يتعلم منها الحب لأنها هى التى أحبته أولا، ويصرخ لكى تحتضنه، فلا تقصر احتضانها له على وقت الطعام، ويدير وجهها إلى ناحيته إذا كانت تنظر إلي شخص آخر، وترتعش شفته إذا ما عبست، ويعد رضاها عنه جزءا حيويا في وجوده.

ومن خلال علاقته بها تدب فيه الحياة، وتنطلق جذوة حبه نتيجة تيارات عميقة تحتية من الخوف والغضب، كما يحدث حين توليه ظهرها لحظة أو تقف فى سبيل رغبته.. وهو يلح فى التأكد من حبها فى كل يوم، وفي كل ساعة، باغاظتها ومعاكستها، ويطالب فى غطرسة بالدليل على أن عواطفها لم تتحول عنه.

أما الكبار الآخرون فلديهم المناعة ضد هذا القلق، وضد تأرجح العاطفة، وهم أكثر قدرة فى الواقع على سياسته، لأنهم لا يستثيرون أعمق مشاعره .. ولكن الميزان يميل إلي غير صالح الأم لفرط ما يضاف إلى كفتها من عواطف تعوقها عن سياسته بنفس السهولة .. إنها تدفع الثمن ويجب أن تستمر فى دفع

الثمن فى سبيل المحافظة على الرباط الوحيد الذى يربطها به.. وأن يكون الثمن فى كل يوم، وفي كل ساعة، فى صورة تعبير عن حبها..

فهى عن طريق معاملته بالفهم المتأنى وحده تستطيع أن تمتص السم من خوفه وغضبه، وعن طريق توثيق علاقتها به تقوده إلى الاكتمال الجسمى حتى يصبح كائنا بشريا ناضجا، وتتوقف على هذه العلاقة في الواقع علاقته المتوازية ببقيةالعالم.

والحقيقة الجوهرية التى تكمن فى هذه العلاقة الوثيقة بين الطفل الصغير وأمه، تتكشف عن أبشع وجه حين تتقطع أوصال هذه العلاقة لسبب أو لآخر لمدة تزيد على بضعة أسابيع.

ويكون رد الفعل عند الطفل فى أثناء مثل هذا الانفصال جديرا بالتأمل حقا، إذ يتوقف نموه الجسمى، كما لو كان عاجزا عن التنفس كما يجب ..

أما الأطفال الصغار، فإن نموهم الجسمى ومهاراتهم قد تتخلف كثيرا إذا ما قورنوا بالأطفال الذين يظلون فى رعاية أمهاتهم، حتى ولو كانوا يلقون رعاية جسمية أوفر من الآخرين..

فإذا اضطر الطفل إلى البقاء دون أمه مدة طويلة، فإن حاله يستقر.. ولكنه يصبح حذرا، غير مستعد لأن يبذل من نفسه، ولا يمنح تلك الثقة الراضية التى اصطلحنا على أنها من سمات الطفولة.

وقد تكون بيئته غنية بالمادة ولكنها فقيرة بالعواطف، وقد يظل حتى نهاية حياته عاجزا عن تكوين علاقات عميقة دائمة مع غيره من الناس لأنه لم يتعلم أن يحب.

ولما كانت الأم هى أهم شخصية فى حياته، ولما كانت عواطفه مرتبطة

بها.. ترتب على ذلك أن كلماتها وأعمالها وعاداتها ومعتقداتها وأفكارها أهم عنده بما لا يقاس بغيرها مما يصدر عن أى شخص آخر.

وقد يؤثر فيه أناس غيرها فيما بعد، ولكنه لايستطيع مطلقا التخلص من تأثيرها الا بقدر ما تستطيع هى تجنب هذا التأثير، فهى أول من يلقنه القانون والصداقة، وأول مرشد له ومعلم. وقد تكون عديمة الاكتراث، أو شرسة، أو على عكس هذا كله.. ولكنها تظل دائما هى العامل المسيطر!

أما بالنسبة للطفل فإنها كالمرشد العارف بكل شىء، الذى يقف عند مدخل قصرتيه هائل « لا بيرنت» يذهل العقل - أى عند مدخل العالم - فهى التى تسير به عبر الممرات المحيرة، تشير إليها وتصفها وتشرحها.. وبذلك يثق شيئا فشيئا وثوقا كافيا لكى يخلص أصابعه من بين أصابعها ويجرى وحده قدما.

وهى تمثل له الكون، فيراه هو كما تراه هى .. إن ضيق الأم بطفلها يضطرها إلى إرساله إلى المدرسة فى تمام سن الخامسة دون اكتراث، ويجعل فضولها يعتقد أن الحياة مثيرة، ويجعل اهتمامها يخفت للبحث عما يسليه هو نفسه فى الحياة.

وتصبح الدنيا غير جديرة بالالتفات إليها، أو هى مليئة بالأشياء الثمينة الغريبة حسبما تقرر هى .. فهى تجره بعيدا عن ذلك الرجل الذى يدور بطريقة غريبة حول بالوعة فى الطريق قائلة : «أنه عامل التنظيم، ولا حاجة بك إلى التطلع إليه»، أو تترك جفنة الغسيل حالما تسمع أزيز الموقد فترفع الطفل بين يديها والماء لايزال يقطر منهما لكى تريه وميض الموقد.

وهى تحدد بنفس الطريقة نظرته إلي الإنسانية بأسرها.. تحددها فى كل مقابلة طارئة بينها وبين غيرها من الناس، فالطريقة التى تتحدث بها إلي الخدم

فى المحال العامة، وعمال المتاجر، وخادمات المطاعم، وسائقى السيارات العامة، تؤثر فيه تأثيرا أبعد بكثير من انصياعه لرغباتها..

وهى تحدثه أثناء تجولها عن أن الناس يشتركون معهما فى هذه الدنيا، وإن لهم نفس المشاعر والمصالح.. ولذا فانهم يريدون أيضا نصيبهم من حرارة المدفأة والمقعد فى السيارة العامة، وفى استطاعتها أن تبث فى نفسه التفرقة الخاطئة بين الطبقات والسلالات البشرية حتى قبل أن يتخطى طفولته الأولى، إذ يسمعها تردد القول : «لست بحاجة إلي اللعب مع أولاد صغار قذرين كهؤلاء!».

وتصبح فلسفته، هى نفس فلسفتها .. حتى بعد أن يستطيع التفكير المستقل بمدة طويلة : «ليس من الخير أن تفعل ذلك، هذا خطأ وشر، يجب ألا تفعله.. وبعد سنوات يصوغ هو هذا العمل وفق هواه.

وتبلغ العلاقات العاطفية بينهما غاية القوة، وتبلغ حاجته الدائمة إليها مبلغ الضرورة.. حتى تصبح رغباتها ووصاياها وأوامرها مشحونة بطاقة من المرجح أنها لم تقدرها، قوة تصمد طوال حياته دون أن يصيبها فى الواقع أى وهن. ويمكن أن يطغى سلطانها بسهولة على جيشان حبه القوى فى حياته المستقبلة.

وقد يتعذر عليه اختيار زوجة تستطيع أن تنافس الصورة الأولى التى يحملها لأمه، فإذا ما اختار زوجته وجد أن الرابطة الجديدة التى تربطه بها أوهن من أن تقاس بسابقتها، وهذه هى جذر مشكلة كل حماة .. الأم والابن اللذان يعجزان عن هجر ارتباطهما القديم.

وتستطيع الأم بنفس الطريقة أن تنقل مزاجها إلى طفلها : « احترس ! ستؤذى نفسك ! ستسقط، ستجرح ، ستحرق نفسه !» ويخاف الطفل الصغير القوى ذو النمو الطبيعى من اللعب مع الأطفال الآخرين، وينظر إلي العالم وكأنه ملئ بكل ما يثير رعبه، فى حين أن الأم المشاكسة تمد أطفالها بأسنان قارضات وأظاهر حداد، فيثب ابنها على غيره لأقل إثارة.

والأم التى تحمل العداوة لجيرانها، لابد أن تنقل إلى طفلها عجزها عن مسايرة غيرها أكثر مما تنقل إليه لون شعرها أو عينيها، ولكن يستطيع الطفل أن يتعلم من نفس المصدر أن يطرح ضجره القديم جانبا ومطالبه العاجلة، وينتحل منها لنفسه ضبط النفس والرصانة.

وأغلب الظن أنه عنتدما يكبر، سيتبع فى تنشئة أطفاله نفس الطريقة التى اتبعت فى تنشئته لأنه لم يناقشها مطلقا : « إن ما كان صالحا لأبي وأمى يصلح لى، فقد كانت أمى دائما تفعل هذا معنا، ولا يمكن أن أفعل خيرا منها» وإذا كان هذا هو العامل الوحيد فى تنشئة الطفل، فإن كل طفل لابد أن يتقمص شخصية أمه إلى حد كبير أو قليل.

فإذا لم يحدث هذا فمداره من ناحية إلي مزاجه الشخصى، ومن ناحية أخرى إلى أن أمه بقدر فطنتها فى استخدام تأثيرها، بقدر ما تركته عرضة للمؤثرات الأخرى الوالد أو المعلم، أو رئيس الكشافة أو الكاهن، أو أبطال الكتب أو التاريخ، أو تأثيري الراديو والتليفزيون أو ما ينسجه خياله.

وفوق ذلك، فإن الأم الشديدة السيطرة قد تنتكس مقاصدها الخاصة .. فالتى تبالغ فى النظافة قد تشب طفلتها قذرة فتندب حظها مرددة: « لست أعرف السبب .. لقد عنيت بتربيتها عناية تامة» ويشكو الوالدان المقتصدان من تبذير ابنهما .. وقد يكون السكير ابنا لرجل لم يذق فى حياته طعم الخمر، والملحد ابنا لأم عميقة التدين، فهؤلاء الأطفال يتصرفون عندما يكبرون بطريقة لم تتهيأ لهم حين كانوا صغارا، أو إنهم يعبرون على هذا الوجه عن المقاومة في مستقبل حياتهم لكل ما كانت الأم متمسكة به من قبل !

وكثيرا جدا ما يسمح الوالدان لأطفالهما بما كان يحرم عليهما فى طفولتهما: «لم تكن تسمح لى أمى مطلقا بعمل هذا .. ولكن يسمح به لأطفالى»،

وهكذا تظل الأم ماثلة فى أبنائها وأحفادها. وسواء أطاعوها أو خالفوها، فانهم على الحالين يعترفون بأثرها فيهم على الدوام!

وتدرك الأم كل الإدراك وظيفتها القاسية فى مطالبها - منذ أيام الطفل الأولى - ومع ذلك فإن هذه الأيام ليست الا بداية تأثير لا تستطيع بحال أن تقيسه أو تحدد مداه، فهى كمن يلقى فى البركة بحجر.. فبعد أن يهبط الرشاش بوقت طويل ويهدأ تموج الماء، تتحرك تحت صفحة الماء الساكنة تموجات أخرى نحو الشاطئ فى سكون ودون انقطاع.

* * *

الفصل الثانى :

الثلاثة وحدة

ما مكان الوالد من حيث نظرة الطفل إلي الأشياء

وهل يستطيع اشباع مطالب طفله أكثر من أمه ؟

قد يناقش الساسة والمرشدون الاجتماعيون والخطباء والكتاب بين عام وآخر علاقة الأم بطفلها.. ولكن كبار رجال الفن فى العالم - وفى كل عصر - هم الذين كشفوا عن تلك الوحدة غير المنفصمة القائمة بين الاثنين، فقد عكفوا على رسمهما مرارا وتكرارا دون كلل، ملتقى الذراعين أو وهى تطوق طفلها وتحتضنه بذراعيها، فمثلوهما دون أن يغيب عن أذهانهم مطلقا اكتفاؤهما الذاتى ببعضهما البعض اكتفاء تاما.. حتى لكأنهما انتحيا عن بقية البشر مكانا قصيا لكى يعيشا فى محيط ساحر من صنعهما!

ولكن مهما يكن من أمر هذه الوحدة الأساسية بين الأم وطفلها، فلربما يضيق بعض المتصلين بالأطفال - عن كثب - بهذا الموضوع. ومع أن الآباء والمربيات والمعلمين والأقارب والأصدقاء يعملون جميعا من أجل الطفل، ويؤثرون فى تربيته تأثيرا قويا، فإن علاقاتهم بالطفل لاتنال شيئا يشبه هذا الإهتمام.

ومن الضرورى فى مرحلة الطفولة -كما رأينا- أن نمنح الطفل الإحساس المستمر بذلك الرباط الذى يربطه بأمه، وهى بدورها تحاول أن تشعره بذلك كلما أخذته بين ذراعيها أو أرضعته أو عنيت به .. إن الدائرة السحرية لتكتمل، ولكنها لا تستطيع أن تظل على اكتمالها.

وكلما تقدم الزمن، يجب أن يتعلم الطفل منح حبه للآخرين، وأن يتقبل حبهم إياه، وذلك لصالح نموه السليم. وواضح أن قدرته على ذلك، ستعتمد إلى

حد بعيد على رغبة أمه الصادقة فى أن يسلك هذا المسلك.. إذ هى وحدها التى تستطيع أن تفتح له هذه الدائرة السحرية وتسمح بدخول العالم بأسره بين ذراعيه ..!

وأول «دخيل» على هذه الدائرة هو الوالد .. وهو أهم شخصية بين الكبار جميعا فى محيط الطفل يشعر بحرمانه من هذه الدائرة.. فلقد كان الاعتقاد السائد فى العهد الفيكتورى يوحى بأن عمل الآباء خاص بانزال «العقوبة» بالطفل أو منحه «قبلة» على جبينه ..

ولكنا وقد أصبحنا اليوم أكثر استنارة فانا نمنح الأب « ميزات» أوفر، كأن يحضر «فوطة» صغيرة جافة من المنشر، أو يقدم قدرا أوفر من مصروف الجيب أو يصحب الطفل إلى نزهة فى صبيحة يوم الأحد !

إن وظيفة الأب فى الحقيقة لا يحسد عليها فى غالب الأحيان، لأن الطفل حتى وهو لايزال يحمل على الذراعين قد يظهر عجزا ملحوظا فى تقدير والده، وهو يعرف منذ سن مبكرة جدا أن الوالد يرعى الأم باهتمام خاص، ويطالبها بالعناية به عناية خاصة .. فهو دون الكبار جميعا الذى يقترب منها ويهدد الطفل بمشاركته حبها، وقبل أن يستطيع الطفل الكلام قد يدفعه أحيانا ليبعده عنها إذا ما انحنى عليها يقبلها..!

وبعد عام أو أكثر – إذا لم تحسن تربية الطفل – فقد يظهر عداءه لوالده باللفظ فيصيح به : « ابتعد ! نحن (! !) لا نريدك!» وقد يطالب بالدليل – بصورة مستمرة – على أنه صاحب الحق الأعلى لدى أمه، حينما يكون والده على قرب منها، فيصرخ طالبا أن يحمل وأن يجاب طلبه، حتى أنه فى بعض الأحيان يصر على النوم فى فراشها.

وتقوم الأمهات بمحاولات غير مجدية لوقف هذه العداوة المتزايدة، بقولها:

«هذا عمل سيىء .. يجب أن تحب والدك» وتتبع قولها هذا ببيان مدى عطفه : «لقد أهداك دراجة ذات ثلاث عجلات فى عيد ميلادك !».

وبرغم هذا، فإن مثل هذه السياسة ليس لها أثر فى نفس الطفل الذى يرغب فيما هو أكثر من الدراجة بكثير.. وحبّ والده له وعطفه عليه ليس لهما أية قيمة إذا كان الأب تسبب فى بعد أمه عنه ..

والطريقة الوحيدة في الواقع لتطليف وساوسه وتغيير نظرته إلى أبيه، هى أن تبصره قبل أن يبلغ هذا الدور بوقت طويل، بأن والده يحتل مكانة هامة جدا في الحياة العائلية .. مكانة هو جدير بها، وهى فى نفس الوقت لا تهدد سلامة الطفل.

والوالد نفسه، فوق أنه قد يصبر ويقاسى كثيرا، فإنه لا يستطيع أن يفعل إلا قليلا .. والعبرة بما تقوله الأم وتفعله. ولما كان الطفل يحبها، فإنه يرغب فى التشبه بها.. وينقل عنها ميلها فى هذه الناحية وفى غيرها من النواحى.

ونحن لا نذكر دائما مدى القوة التى تنقل بها أفكارنا إلى الطفل الصغير الذي يفسر الصوت والتعبير بدقة قبل أن يفهم الكلام بوقت طويل .. «التزم الهدوء لأن والدك يستريح !.. انتظر حتى أخبر والدك بهذا !.. إن والدك سيغضب حين يعود إلى المنزل !.. آه، اذهب واسأل والدك عن ذلك !.. والآن، ماذا سيقول والدك؟»

إن أمثال هذه العبارات تكون فى عقل الطفل الصغير فكرة لا تمحى عن والده، بوصفه شخصا غير مستقر المزاج والسلطة، يغضب ويعاقب .. ويمكن أن يداهن ولكنه لا يوثق به أبدا، وهى فكرة ليس تصحيحها بالأمر اليسير، لأن الوالد ليس دائما معه لكى يتحدث عن نفسه، وبعد عام أو عامين تستطيع الأم التى اختطت لنفسها هذه الطريقة أن تقول عن طفلها، وهى صادقة فيما تقول : « لقد أردت فقط أن أهدده بإخبار والده ..»

والخسارة الجسيمة التى تنجم عن مثل تجاهل أهمية دور الوالد، إنما تكون على حساب شخصية الطفل - سواء أكان الطفل ذكرا أم أنثى - وهى خسارة لا تحتاج إلى توضيح. وفضلا عن هذه الخسارة فى دور الطفولة - كالحرمان من المرح والثقة مثلا، اللذين يستتبعان وجود أب أقوى وأشجع وأمهر من جميع الآباء الآخرين - فإنه قد توجد نتائج بعيدة المدى تنسحب على حياة الطفل المستقبلة، وخاصة إذا كان الطفل ذكرا، لأن تنمية صفات الرجولة فيه تعتمد إلى حد كبير على انطباعاته الأولى حين يشكل نفسه على غرار والده بطريقة لا واعية.

ونحن نلمس بعض هذه النتائج فى النساء اللائى يعتقدن أن أزواجهن يتقتون كل شىء - أو يرين ماهو أسوأ - يرينهم كائنات ممتازة لا سبيل إلى بلوغ مستواها.. وكذلك الأولاد الذين ينشأون فى رعب من آبائهم، قد يتحول رعبهم هذا إلي رعب من الرجال عامة، أو الذين ينشأون على فكرة الأخذ بالثأر.. فهؤلاء قد يصبحون ذوى مزاج عدائى خطير إذا ما واتتهم القوة.

ومع ذلك، فهناك مظاهر أخرى أصدق تصويرا للأبوة يمكن أن يكشف عنها للطفل، فيتشربها دون مناقشة .. كما هو الحال فى غيرها : « دعنا نحتفظ بهذا الشىء لكى نريه لوالدك .. الآن يجب أن نكف عن عمل هذا لكى نعد الشاى لوالدك فهو لابد أن يكون جائعا.. فلنطلب من والدك اصلاح هذا الشىء».. فمداومة السلوك فى مثل هذا الإتجاه سيخفف من قلق الطفل قبل أن تشتد وطأته عليه كثيرا، ويجعله متحمسا للبحث عن مكان لوالده فى محيط العائلة!

وواضح أن التسليم بمكانة الوالد، وبكافة حقوقه على هذا الوجه، أكثر من أن يكون مجرد رغبة يستحب تنميتها فى الطفل .. فهو ما لم يستوعب هذه الحقيقة، فلن يكون نموه العاطفى طبيعيا، ويغلب أن يحمل معه إلى نهاية حياته

أذيال غيرة الطفولة ومخاوفها .. ولقد أوغل «فرويد» فى الواقع فى نظرته إلى هذا الفشل (الذى عبر عنه بعقدة أوديب) حتى جعله عاملا أساسيا فى جميع الاضطرابات العصبية!

ويتوقف الكثير - بطبيعة الحال - على رغبة الأب فى إرضاء الطفل، وعلى مشيئته فى أن يتلاقى معه بشرط أن يفهمه الطفل .. فإذا كان عاقلا، فإنه يشاطر الأم منذ البداية فى رعايته الجسدية لأن الطفل بهذه الوسيلة يأخذ تدريجا في تمييز شخص آخر ذى يدين أشد قوة، يصحبه إلى حمامه اليومى، ويخير له ملابسه بين حين وآخر، وصوته أكثر عمقا حين يهدىء من روعه.

وأهم من ذلك أن يتقبل وجوده ويبحث عنه إذا غاب، وذلك كله نتيجة لمساهمة الأب فى العناية بطفله، لأن هذه العناية هى التعبير الوحيد عن الحب الذى يستطيع الطفل فهمه فى بادىء الأمر.. ومن خلال هذا الحب يتعلم هو بدوره أن يحب، وحينئذ سرعان ما يظهر معرفته وتقديره لوالده بابتسامة الترحيب به، ومد يديه لكى يأخذه.

فإذا ما استقرت هذه البداية، فسيجد الوالد إبان نمو طفله وسائل لا عدد لها، تمكنه من أن يجعل من نفسه ركنا هاما فى حياة الطفل. فهو قد ينمى حبه لأنواع متعددة من الألعاب الخاصة، كألعاب الصيد والنزال التى يجدها غريبة وتشبع فيه نزعته العدائية .. كما تشبع الألعاب الهادئة الأخرى التى يزاولها مع أمه نزعات أخرى ..

فهو يتطوع للمعاونة فى الأعمال اليسيرة غير المنظمة التى يعهد بها إليه، كرى الحديقة، وغسل السيارة، ويتعلم من مزاولته هذه الضروب من النشاط المزاملة التى تعرفها الأم حق المعرفة حين يتتبع الطفل خطاها فى البيت.

وبعد قليل يستطيع الوالد وأطفاله القيام وحدهم برحلات لا يستطيع أن

يؤديها بكفاءة غير الآباء، كزيارة متاحف العلوم، ومحطات السكك الحديدية، والأماكن الأثرية، وما إلى ذلك .. وسيسمح الوالد بمزاولة ما كان محرما، كمتعة استخدام صندوق الأدوات، التى تستعمل فى اصلاح الدراجة أو السيارة أو الأجهزة الكهربائية وما إليها، ويعطى الدروس الأولى لأولاده فى الإلمام بشتى الأعمال اليدوية.. يريهم كيفية تنظيف بالوعة مسدودة، أو اخماد النار، أو اصلاح لعبة.

إن هذه الأعمال المشتركة التى يستمتع بها الأولاد والبنات على السواء - حتى سن البلوغ على الأقل - تقيم صلة خاصة بين الأب وطفله، وتقضى على أية فكرة سيئة عن الأب واعتباره إما مخيفا وإما عديم النفع. وبذلك يظهر فى صورته الحقيقية ويكشف عن مواهب وصفات مخالفة لمواهب الأم وصفاتها، ولكنها متممة لها.

إن الطفل الذي يسعده الحظ كثيرا بوالدين يعنيان به عناية مضاعفة، لا يفيد من ذلك بالقدر الذى يفيده من اتمام نمط حياته كله بالخصب!. فتناول الأب لطفله تناولا حيا، وواقعيته، وتحرره من القلق، وتشديده فى التزام الشجاعة، كل ذلك يعد عنصرا قويا بالنسبة لمعظم الأطفال، وهو يثير بدوره عندهم تجاوبا أقوى.

ومما يُسعد الأب معرفته أنه يستطيع فى كثير من الأحيان إشباع مطالب طفله أكثر مما تستطيع أمه أن تفعل، وسيدرك أن له نصيبا حقيقيا من حب الطفل، ويتمثل هذا الحب فى لجوئه إليه :« ألا تلعب معى يا أبى؟.. هل أستطيع أن آتى معك ؟.. ألا ترينى كيف يدور هذا ؟».

وبمجرد تقبل الطفل لوجود والده، فإنه يبدأ فى ادراك أن تلك الدائرة السحرية التى يعيش فيها مع والدته، يمكن أن تتسع إلى ما لا نهاية لتضم

كذلك أناسا آخرين، وسيشعر بالأمن فى رابطة الأسرة ووحدتها، ونحن نستطيع أن نؤكد، بأن هذه الوحدة لن تكون مطلقا موضع اختلاف بين الآراء على مسمع منه – على الأقل – فى سنيه الأولى، أما المسائل العادية من أمثال : هل يأكل الكرنب أو لا يأكله، وهل يُمنع من الاستماع إلى المسرحية الإذاعية أم لا، فكل هذه مسائل يجب بحثها فى عناية أو الاتفاق بشأنها فى حالة وجوده.

ويجب أن نتجنب تعبيرات مثل : « بنت أبوها » أو « ابن أمه» التى تقسم الأسرة إلى «معسكرات» فإننا بذلك نراعى شعور الطفل ونوفر عليه كثيرا من اظهار عواطفه مرة للزوج، وأخرى للزوجة، مما يؤكد انعزاله.

إن الطفل الذى يضمن حب أمه ووالده يمكن تركه باطمئنان لكى يتعلم كيف يحب والده لشخصه.

* * *

الفصل الثالث :

شخصيات أخرى فى المسرحية..

هل هناك مكان لكبار آخرين فى البيت،

وشخصيات أخرى تلعب دورا فى حياته؟

لابد أن يتعرف الأطفال - إن آجلا أو عاجلا - على ممثلين آخرين فى المسرحية التى تدور حولهم، والتى يقوم فيها الوالدان بدورين رئيسيين .. وقد يشتمل محيطهم المباشر على كبار آخرين يجب أن يتوافقوا مع عقدة القصة، كالمربية أو الحاضنة، ومساعدة الأم أو «الخادم النهارية»، والجدين، وربما الأصدقاء المقربين .. فهؤلاء الذين يعيشون تحت سقف واحد، أو تتواتر زياراتهم يصبحون شخصيات واضحة المعالم عند الطفل.. حقيقة أن بعض الأفراد قد يكلفون رسميا بمهمة العناية به ساعات برمتها، وكذلك الأخوة والأخوات قد يوسعون دائرة العائلة، ولكن الذى يعنينا هنا هو ما يكشف عنه الطفل من عالم الكبار الذى تتوقع منه أن يتجاوب معه.

ولا يكاد يصدق الطفل أن يكون هؤلاء الكبار صورة صادقة من والدى الطفل اللذين يأخذ عنهما طريقة حياته أول ما يأخذ. ونستطيع أن تفترض مطمئنين أن كلا منهم له وجة نظر تتفاوت تفاوتا بعيدا أو قريبا من المعايير التى وضعها الوالدان.

ولذا فإن الطفل يدرك فى وقت مبكر جدا أن هناك معيارا غير ثابت للقيم، فالأب يرحب يجرى الطفل و «رمحه » فى أى وقت، ولكن خادمة النهار لا تفتأ تذكره بعدم الصعود على الأثاث .. وجدته يمكن الاعتماد عليها دائما فى امداده بالحلوى حتى فى أثناء اعداد أمه للطعام.

وجده يتحرى مدى تقدمه بالمدرسة. أما مربيته فهى تتشبث بنظافة اليدين، ولكن والدته تقول : « تعال كما أنت ياحبيبى.. ولكن بسرعة !..» وتخلق هذه الآراء المتضاربة بالضرورة بعض البلبلة عند الطفل، وتجعله - نتيجة لذلك - يسلك نماذج مختلفة من السلوك مما قد يثير الكبار، أو يسلبهم، أو يحيرهم، أو يحزنهم، كيفما تكون الحال، فتقول المربية مثلا : « أنه لم يكن شرسا معى إلي هذه الدرجة مطلقا!» وتقول الأم وهى مكتئبة من حماتها : «أنه يجن دائما كلما حضرت !» ويقول الوالد فى حسرة عن تأثر الطفل به : « أنه يصبح طفلا مختلفا حين يكون هنا».

ومع ذلك فثمة كثير يمكن أن يقال عن المشهد الأول العامر بالناس فى حياة الطفل، وما فيه من مختلف الأشخاص الكبار الذين يدخلون تفسيرهم الخاص للحياة إلى دائرة العائلة الضيقة.

وقد يكون من المناسب هنا الإشارة إلى أنه كلما زاد عدد هؤلاء الكبار كان ذلك أبعث على سروره وصحته النفسية، فتعوده على مظهر الكبار وحركتهم وحديثهم، يقدم عونا للطفل الذى لابد وأن يزداد اتصاله بالكبار الآخرين بسرعة كبيرة.. فالعمة التى تعتقد أن الأطفال يجب أن يظلوا فى مكانهم جادين، إنما تعد الطفل لكى يواجه الغرباء الذين لا يبالون بالابتسام له عبر مقعد السيارة العام، والجدة المتسامحة تذكره بالمرضة الباسمة فى حجرة طبيب الاسنان وهى تقول : «ستأتى معى ياحبيبى».

وإذ يتعلم الطفل الاستجابة إلى هؤلاء الأشخاص فى بيته الآمن، إنما يتعلم كيف يتصل بسكان العالم على أوسع نطاق : بائع اللبن، وساعى البريد، وصاحب المتجر، ورجل الشرطة. وجملة القول أنه يتعلم السلوك الاجتماعى .. إذ أن كل شخص فى البيت يصلح أن يكون نموذجا لشخص آخر من هؤلاء . أن جميع الأشخاص المسنين ينتظر أن يكون سلوكهم على غرار الجد، وكل الخادمات على غرار خادمة النهار.

ومع ذلك فإن مزايا التنقل فى مثل هذا المشهد متداخلة، والمشكلة بالنسبة لمعظم الآباء والأمهات تتبلور حول مسألة التدخل الخارجى، ولكنها بالنسبة للطفل قد يتوزعها مائة موقف وموقف فى سحابة يومه!

وتسليم الطفل اسميا لرعاية أحد الكبار، كما يحدث فى حالة وجود حاضنة، قد لا يحميه من الاصطدام مع من حوله من الكبار، وحين يحدث ذلك ويصل إلى درجة ملحوظة، فيمكن أن يقال يحق أنه راجع فى خطأ أساسى يرتكبه المخدومون عادة .. وهو عدم إدراكهم أنهم يقدمون لأطفالهم بديلا للأم!

كثيرات من الأمهات اللائى يستخدمن حاضنة لا يسلمن بهذه الحقيقة، ويقررون أن الحاضنة مسئولة عن حاجات الطفل الجسمية فقط.. فهى تعد له الأكلات، وتشرف على نزهته بعد الظهر، وتسليته. ولكن لما كانت الحاضنة تقوم على التحديد بكل هذه الخدمات فإنها تصل إلى درجة بالغة الأهمية « فى عالم الطفل» .

لأن أول احساسات الطفل وأقواها تتجمع حول مطالبه الجسدية، ويهتم بمن يشبعها أيا كان. أنه يركز إهتمامه دائما بالشخص الذى يمده بالطعام، ويلبسه الملابس الجافة، ويخفف ألمه إذا أصيب، ويروح عنه إذا خاف، ويتحدث إليه باللغة الوحيدة التى يفهمها.. وهو يلوذ به بطبيعة الحال فى وقت الحاجة.

الواقع أنه إذا بترت الأم، فى وقت مبكر جدا، رابطة إرضاعه الرضاعة الطبيبعية، فقد يصبح طفلها ابن المرضعة حقيقة، كما هو الحال فى الطفل المتبنى الذى يجد أمه الحقيقية فى شخص المرأة التى لا تمت إليه بصلة الدم مطلقا. ومن المدهش أن أمهات كثيرات يعجبن لتلك الثقة الوثيقة التى يوليها الطفل لمربيته كلما وقع فى ضائقة كخدش ركبته أو ضياع قطته، وأحيانا يكون ذلك جارحا لشعور الأمهات .. وهن لا يستطعن أن يفهمن لماذا يفضل طفلهن شخصا «غريبا» ويؤثره عليهن.. ولربما ينسقن إلى تنفيذ إدعاءاتهن السابقة

فيضعن المربية « فى مكانها » دون اكتراث لسلطانها - على الطفل - ويبطلن أوامراها، أو قد يعتدن فى اجتذاب طفلهن على قوة الهدايا المادية والنزهة المسلية فتخصص المربية للنزهة اليومية الرتيبة فى حين يحتفظن لأنفسهن بالرحلات المثيرة إلى حدائق الحيوان أو زيارة متاجر اللعب.

ولن يكون غريبا أن تتأثر المربية فى ظروف كهذه .. بل حين تشعر أنها عاجزة عن الوقوف فى وجه الأم، تصب جام غضبها على الطفل، ومعنى ذلك أنه سوف يضار من جانب أو من آخر : «أظن أنها «هى» التى سمحت لك أن تفعل ذلك .. حسنا، عليك الآن أن تفعل ما أقوله أنا !» وهنا تشير كلمة «هى» إلى الأم مرة وإلي المربية مرة أخرى.

وسيقاوم الطفل العادى - بمرارة - هذه التغيرات التى تحدث فى حياته اليومية .. إن العالم الآمن، العالم الذى يعرف فيه بالضبط ماذا سيحدث، هو فى أغلب الظن أحسن عالم يمكن أن يوجد فيه ..

ولذا فإنه يقاوم بشدة ما تتضمنه عبارة مثل : « يجب ألا تفعل ذلك على هذا الوجه! أنها تقول لك لا تفعل !». وتجده الأم فى يوم عطلة المربية عسير القياد، كما تجده المربية عند عودتها من عطلة نهاية الأسبوع محطما، وبذلك يكون الطريق ممهدا للحل التالى : مربية جديدة.

وواضح أنه في موقف كهذا ينال الطفل النصيب الأوفر من المتاعب .. فلا الأم التى تتصل بصديقاتها بالتليفون فتحدثهن عن عدم كفاية المربية، ولا المربية التى تندد لزميلاتها بعدم احساس سادة هذه الأيام، تضار كثيرا ..

أما مسألة ما هو أفضل لصالح الطفل فإنها تنسى - بالرغم من اصرار كل من المرأتين الراشدتين على أن هذه المسألة هى مدار إهتمامها - وبذلك يصبح الطفل وسيلة للتظاهر بالنفوذ، بين بقية أفراد المنزل.

وقلما تتدخل فى حسابنا مدى تأثير مثل هذا الموقف على الطفل الذى يكون آخر المطاف فى قلب العاصفة .. فى حين أن حالة كهذه يمكن بسهولة أن توضع لها نهاية سليمة.

إذ أن كثيرا من الناس تواجههم أمثال هذه الصعوبات من أقارب تربطهم وإياهم صلات ودية قوية فيختلطون بالعائلة، وربما يكون من بين عوامل وجود المشكلة، الجدان والجدتان الذين يهيئون لنا نواحى خاصة على جانب من الأهمية.

ولا جدال فى أن ذلك الجيل القديم، قد يستطيع اشباع مطالب الطفل الصغير بطريقة قد لا يستطيعها حتى والداه، فالاستماع إلى حديث المسنين البطىء، أيسر كثيرا على الطفل من حديث والديه السريع الشبيه بالدمدمة المنتظمة، وخطواتهم الوئيدة توائم الخطوات الأولى للطفل الدارج.

وحجر الجدة وصدرها المريح المنبسط، واعتكاف الجد على قراءة الصحيفة، وحديثه الخطير : «قص على ثانية كل شىء عنه» وأحاديثه عن الماضى .. «عندما كنت صبيا ...» .

كل ذلك يلائم طريقة الطفل المتمهلة ويتفق مع إهتماماته، لذلك تكون الجدة فى كثير من البيوت فى المنزلة التالية مباشرة بعد الأم، كما قد يكون الجد كذلك شخصية محبوبة.

ومع ذلك فقد يتسبب الجد أو الجدة في مواقف أشد اثارة بكثير من المواقف التى يسببها الأغراب عن العائلة .. إذ يبدو للمسنين أن « الأطفال الصغار الذين يركضون فى الطريق أمامنا ويخفون شبح الموت عن أبصارنا» يبعثون فيهم بهجة قد تفوق تلك التى يحسها حتى الوالدان، لأنها بهجة لا يشوبها شعور بالمسئولية.

ويسر الجد حين ينشل حفيده، ما فى جيب صديريته فى أثناء بحثه عن ساعته، كما تحب جدته أن تلعب معه « لعبة الكرات الرخام» كى يستطيعا فى أية لحظة أن يقولا : «اجر الآن !» ويمكن الاستسلام لتوسلاته المحببة، والضحك من سلاطة لسانه المسلية، والواقع أن الجدين يمكن أن يستمتعا بالطفل إلى أقصى حد، إذ حينما تتحول توسلاته إلى طيش وسلاطة لسانه إلى فظاظة - أى إنهما حين يتعبان منه يمكن إعادته إلى والديه لتقويمه !

بيد أن هناك ضروبا أخرى - أكثر تشويقا - يستسيغها كل من الوالد والجد فى بيئة الطفل .. ومن الحقائق الثابتة أن الأب نفسه يظل طفلا فى عينى أبويه مهما تقدمت به السن، وأن الوالدين المتوسطى العمر، والجدين الأشيبين يمثلون أعاصير السنين الكثيرة الماضية واجهادها.

وقد تظل المرأة - حتى بعد أن تصبح ذات زوج وبيت - على ثورتها ضد أمها أيام طفولتها، وتظهر هذه الثورة فى جسم طفلها ! فقد اضطرت وهى صغيرة إلى المحافظة على نظافتها - منذر عشرين أو ثلاثين أو أربعين عاما -

ولذلك فهى الآن ترسل طفلها عمدا ليحيى جدته بملابسه الخارجية القذرة وشعره المشعث انتقاما من ماضى طفولتها البعيد ..

إن طفلها فى الحقيقة يثأر لها من سابق ما كانت تقاسيه من ضغط شديد : «لن تفعل» ويقع على رأسه المشوش عبء خصام الجدة مع الأم، فتقول معترضة على مظهر الابن : « كيف تسمحين له بالتجول هكذا ؟»

والجد (أو الجدة) الذى يناضل فى سبيل سلطانه الضائع يجد فى كل مشاجرة تنشب بين الأم وطفلها فرصة ذهبية لاسترداد نفوذه القديم (حين تكون الأم زوجة ابنه، فإن المعركة تكون أقوى وأشد!).. «لا أستطيع أن آكل هذا يا أماه.. هل أستطيع أن آخذ كعكة؟» .. «يمكنك أن تفعل، ولكن يجب أن

تأتى على هذا أولا !» وهنا يصبح الجد أو الجدة :«لا تتحذلقى إلى هذا الحد!» وينثنى مخاطبا الطفل بقوله : «هذه هى ياحبيبى .. خذ واحدة من كعكات جدتك .. لقد صنعتها لك خاصة ».

وقد تذعن الأم للطفل فى مناسبة أخرى، فيوجه إليها اللوم مما يدل على أن المقصود هو اثارتها قبل كل شىء. والطفل فى هذه الحالة يراقب وينتظر، وهو أبعد ما يكون عن فهم الدوافع الكامنة وراء هذا النزاع.. مثله فى ذلك مثل الكبار أنفسهم، ولكنه سريع مثلهم فى اقتناص الفرص الملائمة لكى يحصل على ما يريد.

والتغيرات المفاجئة التى تحدث من هذا القبيل لا حصر لها، وقد واجه معظم الناس بعضا منها.. فالأعمام والأخوال والعمات والخالات يستريحون لهزيمة الوالدين حين يسىء الطفل التصرف، وذلك لأنه يأخذ بثأرهم عن مشاحنات قديمة حدثت فى طفولتهم.. فالواحد منهم قد يقول فى نفسه : « لقد كان هذا الوالد يتغلب على دائما فى الملاكمة حين كنا حدثين» .

ثم يستطرد فى التفكير : « ولكن طفله يتغلب عليه الآن !».. ونتيجة لهذا «التفوق المتأخر» ، تقدم النصيحة والنقد دون قيد : « إنه بحاجة إلى ضرب موجع.. أنت متساهل معه أكثر مما يجب .. اننى لا أسمح له بالفوز عليك ».

وفى مثل هذه الحالات – وهذه لا مناص من حدوثها إذ هى جزء من الوحدة العائلية – يوجد اعتبار جوهرى يجب أن يضعه الأبوان الساخطان نصب أعينهما .. وذلك أننا يجب أن ندرك أن الطفل سيقاسى فى النهاية أكثر من الكبار !

أنه سيقاسى أولا لأن أمنه مهدد بالخطر، والكبار الأقويات من حوله فى نزاع .. أنه «قزم» بين «عمالقة» يتشاحنون، وهو يستطيع أن يفسر معنى

النظرات المنقدة والكلمات المتلاحقة واحمرار اللون، وصفق الأبواب، والخروج المفاجىء، كما يفعل أى شخص آخر .. يفسر كل ذلك فى الحقيقة خيرا من سواه، لأنه ظل سنتين أو ثلاث سنوات مضطرا إلى ذلك فى نطاق لغة محدودة، فيرتعش وينسحب خائفا فى الوقت الذى كان يجب ألا يشعر فيه بالخوف !.

وثانيا، لأنه ربما يطلب منه فى كثير من الأحيان - بطريق مباشر أو غير مباشر- أن يتحيز، وهو عمل يتعذر عليه تنفيذه إذ يكون قد منح حبه فعلا لأحد الفريقين المتنازعين : للمربية، أو الجدة الثرثارة، أو الجد المزعج ! ولذا فإن ملجأه الوحيد فى هذه الحالة أن يحاول اخفاء شعوره..

بل ربما يشعر أيضا أن من الخطأ مبادلة الآخرين الحب أو الكشف عن حبه لهم، فيصبح أتعس الناس وأشدهم إحساسا بما يجرح الشعور.. يصبح شخصية لا تعرف الحب، لأنه تعلم أن من الخطر أن يحب، وبذلك ينضب بنبوعه وينبض معه كل أمل فى عقد أوامر مرضية مع أقرانه.

وثالثا، ربما يأخذ حين يصاب حبه بالقصور ما يستطيع أخذه، ويهرب بالغنيمة تاركا غيره متخاصمين « إذا لم تدعينى أفعل فسوف أطلب منها ذلك .. إنها ستسمح لى .. إننى أحبها أكثر منك !..» ويغلب على الظن أن طفل الخامسة لا يعرف مسرة أقوى من أن يجرب قدرته على احداث الفرقة بين شخصين من الكبار.

هذه النتائج عميقة الأثر، وتحتاج كل منها إلي علاج حاسم وإرادة حديدية فى ضبط النفس، وصبر شديد وتصميم قوى فى استنباط الطيب من الخبيث .. كما يجب أن نلم بالموقف من الناحية الواقعية فنعرف أنه قائم فعلا، وأنه سوف يتفاقم ما لم نحاول منعه .. وعندئذ يجب أن نسلم بجماع قلوبنا أن الطفل لابد له أن يحب غيرنا من الكبار وأنهم سيحبونه - سواء أحببنا هؤلاء

الكبار أم كرهناهم – وكما نطرب لكل تعبير عن الحب يغدق على أطفالنا، يجب أن نرحب كذلك بقدرة أطفالنا على منح حبهم للآخرين.

وحين يقوم غيرنا من الكبار بالعناية الكاملة بطفلنا، يجب علينا أن نهتم كثيرا بالبحث معهم – فى غيبة الطفل – عن مطالبه المتغيرة، وعن أفضل الطرق التى يمكن أن تشبع هذه المطالب .. فهذه الصراحة وحدها هى التى تجعل المربية « فردا من أفراد العائلة»، نعنى أنها ستقوم بمسئولياتها عن طيب خاطر فى مقابل « المزايا » التى منحت لها.

ولا تكون مثل هذه المناقشات « الرسمية » بين أفراد العائلة ممكنة على الدوام، وقد يستنكرها البعض استنكارا شديدا.. ولكن من الممكن أن نبين لهم وجهة نظرنا وخاصة فى الأدوار الأولى من حياة الطفل، على ألا يتم ذلك بطريقة خشنة، كأن يقال : «لا أحب أن تعلمينى ما ينبغى أن أفعل .. أنا لا أحب أى تدخل فى شأن طفلى».

بل نستطيع أن نشير إشارة عابرة إلى ما نريد « لا أريد أن أعوده على تفضيل بعض أنواع الطعام، ولذا فاننى لا أسأله مطلقا إذا كان يحب هذا اللون من الطعام أو ذاك» ..

فإذا ما قامت اعتراضات، فيمكن حسمها بالقدر الملائم لها من الحزم، ولربما يسلم بهذه الاعتراضات على مضض، فإن هذا خير من المعارضة الإيجابية فى حضور الطفل.

والبدء بخطوات كهذه فى الأيام الأولى من حياة الطفل، والمناقشة الودية فى أمر تربيته، ونبذ العبارات من مثل : «طراز قديم» و «طراز حديث» .. كل ذلك سيؤتى ثماره فى الوقت المناسب وبخاصة – وهذا أمر هام – إذا أبدينا على الدوام أننا سعداء بمشاركة الآخرين لنا فى تربيته.

قد يقول الجد حين يرانا نحتضن ابن الرابعة : «إنك ستفسده !» فى حين أنه يقول للغرباء : «أنه طفل مدهش» .. وقد يضيف إلى ذلك « أنه غير مدلل بالمرة !».

وهكذا عندما تكسر الجدة نظامنا الجامد الذى قررناه، وهو عدم تناول الحلوى قبل الأكل، فيجب أن نقول للطفل : « هذا عمل رقيق من جانب جدتك» ونربط به عبارة أخرى : « لا أظنها عرفت أنك تستبقى دائما الحلوى إلى ما بعد الطعام، وسوف نريها فى المرة القادمة أين تضعها بالقرب من صفحتك».

ويجب أن تتفادى التلميح إلي ما تسببه الجدة من إزعاج، الأمر الذي يترجمه الأطفال بدقة ويروحون يرددونه طوال الوقت فى لغة جارحة : « تقول أمى إنك خرقاء». .

وحين يقول بلهجة الظافر : «إن عمتى تسمح لى» يمكننا أن نقول بلطف: « حسنا.. أن بعض الناس يخالفون البعض الآخر فى التفكير.. إن عمتك فعلت ما ظنت أنه الأفضل».

وقلما تسمى هذه السياسة بسياسة النفاق، أو توصف بأنها تصرفات زائدة، أو إدعاء الود حيث لا نشعر بأى ود، ولكنها تعلم أطفالنا أن «لكل شخص ذوقه الخاص»، وهى بداية ذلك التغير التدريجى الطويل، من رؤية الأشياء سوداء وبيضاء فقط، إلى رؤيتها سلسلة من الألوان المتدرجة – لا نهاية لها – يمكن أن تكون معالم العقل الناضج ..

فإذا أخذنا بوجهة النظر هذه، فقد نشعر بأن هذه « الشخصيات الأخرى فى المسرحية» نضيف لونا وتفصيلا لصورة من الحياة التى خلفناها وراءنا، لا يمكن تخطيطها الا بخطوط بسيطة عريضة مجملة.

* * *

الفصل الرابع :

تقول معلمتى ..

ماذا يعنى المعلم – أو المعلمة – بالنسبة للطفل ؟..

وماذا ينبغى أن تفعل الأم لتوطيد العلاقة بينهما ؟

عندما يبدأ الطفل حياته المدرسية، يتصل بواحد من الكبار تختلف صلته به – عما عهده إلى ذلك الوقت فى أى شخص آخر – تمام الاختلاف، فهى صلة بعيدة عن الوسط الذى ألفه فى البيت .. ولأول مرة – وهى فى نظره مغامرة مخيفة – يجب عليه أن يعتمد على نفسه فى الاتصال عن كثب بأحد الكبار الآخرين. وحين نذهب إلى أبعد من ذلك فى تقدير الظروف التى تلتقى فيها المعلمة والطفل، فإنه لا يدهشنا إذا كان يعدها شخصا فذا فى بابه .. لا تجرى عليه سنة الحياة الإنسانية !

أن الطفل يترك بيئته المنزلية الصغيرة لكى يرى معلمته فى مبنى المدرسة الفسيح، وكأن فى أطراف أناملها كل أنواع الحرف الجديدة المسلية .. الألوان، والورق، والصلصال، والماء، والصور، والاحاجى، واللعب، والخرز. وهى تقص عليه الحكايات، وتغنى له الأناشيد، وتساعده على الغناء والرقص.

وفى رفقتها وتحت حمى جناحيها يقابل أطفالا آخرين .. فيلعب معهم، ويراقبهم، ويقيس جرأته بهم، ويكشف عن قدرات جديدة وألعاب جديدة فى مملكتها .. فيثبت – فى عينيه – صورة البيت والأم مؤقتا، فلا نعجب أن نسمع تلك العبارة المتكررة – حتى نملها – خلال الشهور القلائل التالية لالتحاقه بالمدرسة : « قالت لى معلمتى ....» يرددها فى تبجيل واحترام.

ويتوقف الكثير من دواعى سرور الطفل بالمدرسة على استعداده لتقبلها –

بطبيعة الحال - فمعظم الأطفال فى سن الخامسة يجدون « عشهم» فى البيت قيدا تافها، ولكن حماستهم - بغير شك - يثيرها موقف المعلمة منه. ولا يختلف هذا الموقف عن موقف الكبار فى البيت فحسب، بل إنه موقف محبب من بعض الوجوه .. بالنسبة إلى رجل صغير فى الخامسة من عمره !.. فهو موقف خال مثلا من العناية المتزمتة، ومن تتريع الأم أو المربية .. فمهما بلغت رقابة المعلمة وحرصها على الحيلولة بينه وبين مواقف الخطر أو الضيق، فإن أكثر ما يشغل نشاطها هو تشجيعه على التجربة والاختبار لا الضغط والالزام!

* * *

وفضلا عن ذلك، فإن معلمته - لحسن الحظ - لا تعرف شيئا عن «ألاعيبه الصغيرة المضحكة» و «مزاجه المتوتر» وذكائه الفذ، ولا تهتم بما لا يحب، ولا بالأطفال الذين اعتاد أن يلعب معهم، فهى لا تعرفه إلا فى فصلها بين أفراد يتميزون بخصائص عامة بارزة .. الولد الصغير المتبلد العينين الذى تراقبه أمه المزعجة فى وقت اللعب من سور المدرسة.. والفتاة الجذابة التى تصر على القاء جميع منظومات مربيتها على تلاميذ الفصل بدلا من القائها على أسماع المعجبين بها فى البيت.

وجهل المعلمة لحسن الحظ بطبائع أطفالنا، ومهمتها التقليدية فى جمع خمسين طفلا أو ما يزيد فى اطار اجتماعى موحد - وهى حقيقة لما يعترف بها كثير من الآباء والأمهات، بل هى موضع شك عندهم - ومعرفتها بأطفالنا القائمة على درايتها وخبرتها .. كل ذلك يمنحها القدرة على سرعة البت والفطنة فى أن تسوس الأطفال الجدد، وهو أمر يعين الطفل فى معظم الأحوال.

والأمهات والمربيات اللائى يراقبن نمو الطفل - منذ نعومة أظفاره - لا شك يملن إلى الإستجابة له بكل ما يملكن من عواطف، ويكون اهتمامهن به

مبالغا فيه عادة إلى حد كبير، وامتداحهن له لا يتناسب مع تقريعهن له. ويستطيع الطفل بالمدرسة - إذا أراد - أن ينغمس فى غفلة نسبية، ويستمتع بالحياة خفية لأنه مجرد فرد بين مجموعة، ويسره أن يندمج فى العمل الذى ينجزه، سواء أكان جيدا أم رديئا، مع أعمال غيره من أفراد الجماعة.

وينقطع ذلك التوتر المستمر الذى يعيش فيه بعض الأطفال فى البيت .. ابتغاء أن يظل الواحد منهم على الدوام « ابن أمه » الصغير العاقل، أو ابن المربية الكبير. وقد تسبب ثورة « ب » فى المدرسة تبرم المعلمة به، بل ربما عاقبته .. ولكن لأنها لا تطالبه بنفس المطالب العاطفية - كالأم أو المربية - فإن فقدانه لحبها ليس بالأمر العظيم الأهمية، وفى مقدوره التسليم بجفوتها دون أن يصيبه كرب كبير.

فلا عجب أن ينجم عن الأسابيع الأولى بالمدرسة تغيرات ملحوظة فى الطفل العادى، فهو يصبح أشد تصميما وأكثر ثقة فى أعماله، ويبدو كأنه كبر فجأة، وتخضع ألعابه لقوة خيال دافعة، ويتخذ أنماطا جديدة من الحديث والتفكير .. ويصبح ما يتعلمه بالمدرسة - وما سيتيحه له ذلك فيما بعد - منافذه العظيمة إلى الحياة . وفى نطاق هذه النظرة، تكون المعلمة بطبيعة الحال هى المحرك الأول.

وكثيرا ما تكون نظرة أولئك الذين يسعون حتى الآن إلى التسلط على الطفل دون منازع - إلى هذه التغيرات فى سلوك الطفل - نظرة كئيبة، ويرْثون لضياع «عاداته المحببة البسيطة» ويستنكرون رفقاءه الذين انتقاهم، ويغيظهم توبيخ المعلمة».

ومع ذلك فإن الذهاب إلى المدرسة حدث هام فى حياة الطفل .. وهو الخطوة الأولى لابتعاده عن البيت فى رحلته التى لا معدى عنها فى الحياة، فإذا

ما استطاع أن يعالج هذه المحنة بحبور وثقة، فقد تحققت لدينا كل أسباب البهجة. والآباء والأمهات الذين يفهمون هذا يستطيعون الاسهام مع الطفل فى حبه واحترامه لمعلمته، وفى تحمسه لمدرسته .. فيعتبرونها - كما هى فى الواقع - المعين القوى لتهيئة الطفل لشئون الحياة.

ولا مناص من اختلاف أوامر المعلمة التى تصدرها للطفل، وطريقة معالجتها لشئونه عما نفعله نحن .. ولا مناص كذلك من أن تكون استجابة بعض الأطفال غير ملائمة لعناصر معينة فيهم. وربما تشعر الأم بأن طفلها «مكبوت » أكثر مما يجب، وأن المعلمة قد تصرفت معه تصرفا غير حكيم فى موقف ما، أو أن استجابة الطفل ستكون أفضل إذا وضع فى فصل آخر.

ومهما كان شعورها إزاء هذا الأمر، فإن سياستها ينبغى أن تظل محايدة أمام الطفل، فتقول كلما سنحت الفرصة : « ربما لم تفهم الآنسة « ك » ما قلته لها، ولربما استطعت أن توفق أكثر من ذلك لو كنت قد حاولت» .. فمثل هذه الأقوال تحول دون تأصل عادة الشكوى عند الطفل الصغير.. وأهم من ذلك أنه يساعد على تخفيف بلبلة الطفل مما يصيبه فى المدرسة، فيستعيد ثقته بنفسه استعدادا لليوم التالى.

* * *

ويجد بعض الأطفال - بطبيعة الحال - عند دخولهم الحياة المدرسية، مشقة أكثر من البعض الآخر .. ولكن علينا أن نساعد الطفل على أن يواجه مشكلاته بنفسه، ولا يكون ذلك بأن نجنبه صدمات الحياة ومشكلاتها ..

ويتوقف نجاح الطفل أو إخفاقه فى هذه الناحية - إلى حد بعيد - على الطريقة التى تنتهجها فى الشهور القلائل الأولى قبل أن يبدأ الطفل حياته المدرسية فعلا. والأطفال الذين يحذرون فى مناسبات عدة - خلال عام أو نحو

ذلك قبل بدء الدراسة – كأن نقول لهم : « انتظر حتى تذهب إلى المدرسة .. يجب أن تغير من عاداتك .. سوف لا تستطيع الاستمرار على هذه الحال » .

هؤلاء الأطفال سوف يتوقعون الشر بطبيعة الحال كلما تحدثوا عن المدرسة، ولا ينتظر أن يستقر لهم قرار بسهولة .. ولكن الطفل الذي أخذوه فى نزهة بعد الظهر إلى الملعب وشاهد جماعات الأطفال وهى تلعب، وسمع من الآخرين تلك الأوصاف الجذابة عن حفرة الرمل، وساحة الألعاب الرياضية.

والطفل الذى تعطيه أمه فكرة عن المدرسة بوصفها مكانا سعيدا دائب الحركة، دون أن تبالغ فى الضرب على هذا الوتر، ستجده شديد الرغبة فى الذهاب معها إلى المدرسة فى اليوم الأول.

فإن بدا على الطفل أنه غير سعيد حقا فى المدرسة، أو غير سعيد لأنه فى رعاية معلمة معينة، فلربما يحتاج الأمر إلى التدخل. ولا توجد غير مشكلات قليلة تعجز المقابلة الخاصة مع المعلمة عن حلها، فإن التحدث معها لبعض دقائق – قبل الدراسة أو بعدها – يحقق استثارة غير متوقعة لكل من الطرفين.

أما ما يجب تحاشيه بأى ثمن، فهو الانتقاص من قدر سلطة المعلمة : «إن الآنسة « ك » جد مزعجة، ولسوف أحضر لمقابلتها لأننى لا أحب أن تعاملك على هذه الصورة ».

* * *

وأمثال هذه التعليقات قد تخفف من شعور الأم بكامل ملكيتها لطفلها – وهى ضرورة يؤسف لها دائما – ولكنها تعليقات قد ينجم عنها نتائج مدمرة .. وأكثرها شيوعا هى أن الطفل ينقلها مباشرة – وربما بغير قصد – إلى معلمته التى تقرر – بشعور إنسانى – أن «ب» طفل ممقوت، وربما كانت أمه تفوقه فى هذه الصفة – وتلك ناحية قلما تجعله سعيدا مع معلمته.

أو تلك الأم التى تهنىء نفسها لأنها أوضحت لـ «ب» بنجاح أن الآنسة «ك» معلمة سيئة، فتجد نفسها بعد عام من ذلك مكرهة على أن تشكو لجاراتها مر الشكوى من انعدام النظام بالمدرسة، بل وتتوسل إلى الآنسة « ك » أن تفعل من أجل الطفل شيئا !.

ومع ذلك فإن أخطر نتيجة تترتب على مثل هذا الموقف هى أنه يفزع الطفل أكثر مما يريحه .. فما دام قد أبعد عن أمه ليقضى الشطر الأكبر من حياته اليقظة مع معلمته، فهو مضطر إلى الشعور بالثقة فيها إن أراد أن يكون سعيدا، ويجد فى أيامه الأولى بالمدرسة أن الثقة قد وضعت فى مكانها الملائم.

ويذهب إليها حين يختلط عليه التطريز، أو حين لا تتبقى لديه ألوان، فيجدها على استعداد لمعاونته أو تبصيره بما يفعل .. وسيلاحظ أنها قادرة كذلك على معالجة مشكلات الأطفال الآخرين، وعلى فض المشاحنات فى الملعب، وغسل الركب المخدوشة.

فتصبح عبارة : « سأقول للمعلمة » فى الحقيقة الطريق العملى المستطاع عندما يواجه واحد منهم صعوبة ما .. فهذه الملاحظات جميعا - بالإضافة إلي انطباعاته عن معارفها التى لا يحدها حصر - كل ذلك سيعينه على الشعور بالسعادة والرضا بالمدرسة والرغبة فى ترك أمه ليذهب إليها.

* * *

ولكن عندما تبدأ الأم فى تشكيكه فى قدرات المعلمة كقولها : « لم أسمع مطلقا بمثل هذا اللغو !.. لا أعرف فيما تفكر الآنسة «ك»»، فإن الطفل يأخذ مباشرة فى مشاركة الأم شكوكها .. فأى هاتين الشخصيتين المحبوبتين القويتين فى حياته على صواب ؟... إن الوفاء لواحدة ليس معناه التنكر للأخرى، والصراع الذي ينجم عن ذلك سوف يعكر جو الحياة المدرسية كله !

وجدير بالذكر أن المدرسة، كما تكون أول تجربة للطفل خارج أمن بيته، فإن المعلمة تكون هى الأخرى أول من يمثل العالم الخارجى.

فى نظر الطفل. والطفل الذى تشجعه أمه على تكوين علاقات طيبة مع معلمته الأولى، يكون على استعداد لتكرار هذه العلاقات مع المعلمات اللائى سيخلفنها فى العمل، ومع رؤسائه بعد انتهاء عهد الدراسة.

* * *

الفصل الخامس :

الطفل والحياة

هل يجد الطفل الأوحد الحياة أشق

مما يراها غيره من الأطفال ؟..

يعتبر الطفل الأوحد دائما كأنه مشكلة، فى حين لا يكون باقى أفراد العائلة مشكلة .. فيتردد وصفه بأنه أنانى متلاف يريد أن يحيا على طريقته الخاصة، ويظن أنه سيد الجميع .. فلا عجب إذا كانت تقلق والدى الطفل الأوحد مسألة تنشئة طفلهما على وجه ملائم للحياة، وخاصة إذا كان أملهما فى إنجاب غيره من الأطفال قد انقطع، وقد يشعران - بمعنى آخر - أنه طفل «محروم» !.

فما هى حقيقة موقف الطفل الأوحد، وماذا يمكن عمله لتصحيح حظه السيء فى أن ينشأ دون أخوة أو أخوات ؟.. وما مدى رجحان كفته أو هبوطها؟.

من الواضح أولا أن الطفل الأوحد يحظى بميزات من الناحية المادية، فمهما كانت ثروة العائلة فلابد أن يكون أحسن حالا بكثير مما لو تقاسم معه هذه الثروة آخرون، فهو الكاسب عادة فى عدد اللعب وأثاث حجرته، ونوع ملابسه، والمدرسة التى يلحق بها.

ومن الغباء أن ندعى أن هذه الأشياء لا تهم الأطفال، فهى فى الواقع تهمهم كما تهم والديهم على السواء. ويحدد بعض الآباء والأمهات عامدين عدد أفراد عائلتهم بطفل واحد لكى يمنحاه هذه الميزات الكبرى .. وبصرف النظر عن القيم الزائفة، فلا شك أنهما يستطيعان أن يقدما الكثير مما يلزم لرفاهية أى طفل.

ومهما يكن من أمر تلك السعادة « النظرية » التى تنجم عن المشاركة، فقلما يوجد طفل فى الرابعة لا يفضل أن تكون لديه دراجة بثلاث عجلات، بدلا من وجود أخت له راقدة صاخبة فى عربتها الصغيرة، وفوق هذا فإن الدراجة يمكن دون شك أن تعمل - في نفس الوقت - على نموه العام خيرا من أخته ..

وامتلاكه للدراجة قد يجعله عضوا مرغوبا فيه بين مجموعة يستطيع أن يجد فيها اشباعا عميقا لنفسه، وحرمانه منها قد يكون معناه قضاء أوقات ما بعد الظهر عاطلة دون ثمرة، إذا لم يستطع أن ينضم إلى غيره من الأطفال.

والطفل الأوحد لا يعانى فى الغالب قسوة الحرمان أو يضطر إلي ارتداء ملابس أخيه الأكبر، أو سماعه عبارة : « لا نستطيع أن نعطيه لك ».. كما تعار مطالبه أذنا صاغية، فى حين أن الطفل فى العائلة المتعددة الأفراد، قد يتعلم عدم الافصاح عن رغباته، فلا عجب إذن أن يواجه الطفل الأوحد الحياة بنوع من الغرور والثقة فى أن كثيرا مما يطلبه سيصبح في حوزته .. وهذه الثقة ليست بالشىء القليل القيمة بالنسبة لمستقبله فى عالم شديد التنافس.

وثانيا، فإن هذه الرفاهية المادية تجلب فى ركابها غالبا بيئة زاخرة، وهو يرغب فى شراء آلة تصوير، وأن تساعده أمه فى أظلام الغرفة ليستطيع تحميض الشريط، وهو يريد أن يقرءوا له ويساعدوه ويطلعوه على أشياء، وأن يعيروه آذانهم..

هذه كلها ملك له، وهى جديرة أن تكون كذلك. أما الثقافة الخصبة، وهى النتيجة المترتبة على ذلك، فغالبا ما تميزه عن الطفل الذى ينتمى إلي عائلة كثيرة الأفراد قد يكون بدوره محبوبا بينها، ولكن مصالحه يجب أن تتفق ومصالح الآخرين، وإذا لزم الأمر فيجب أن تخضع لها !

أما الأمر الثالث، ولربما كان أهمها جميعا، فهو أن الطفل الأوحد يتمسك

بالحصول على كل نصيبه من رعاية الأم .. ولا تزال البحوث في خفايا الطبيعة البشرية تكشف عما يثبت الأهمية القصوى لهذا العامل فى عملية النمو، فالطفل الذى يحصل على أكبر قدر من الحب ليس هو الذى «يفسد»، وإنما الطفل الذى لم يحصل على نصيبه الكامل منه !

والطفل الذى يشعر أنه أهمل عقب ولادة أطفال آخرين. قبل أن يكون قد أشبع تماما، فلربما يقضى من مرارة القلق الذي يشوش شخصيته برمتها .. بينما يظفر الطفل الأوحد بهذه الميزة التى لا تقدر بثمن، وهى أنه الطفل الأول والأخير ..

وعلى عكس الاعتقاد الشائع، فإن هذا الأمن المطلق على دوام علاقته بوالديه قد يكون التربة المثمرة التى تزدهر فيها أكثر الطبائع اشراقا.

ويقول فرويد فى كلمات لا تنسى : « أن هذا الطفل الذي يكون حبيب أمه دون منازع، قلما تنقصه الثقة فى النجاح التى تؤدى إلى النجاح الحقيقى»، وهذا أيضا يمكن أن يضاف إلى ميراث الطفل الأوحد المحبوب.

ومع ذلك يجب أن نسلم بأن هذه المزايا «نظرية» .. والواقع أن كثيرا من الأطفال الذين ينتمون إلي عائلات كثيرة العدد، قد يستمتعون بها فى حين أن الأطفال الوحيدين قد يفتقدونها، لأن شعور والديهم بوجود « طفل واحد فقط » يجعلهم يثورون على مثل هذا الرباط الواهى الذى يعرقل تصرفهم !

ويرسل الطفل الأوحد فى كثير جدا من الأحيان إلى جدته، أو يحمل إلى قريبة من الأصدقاء .. وقد يجر إلى فراشه فى وقت مبكر جدا إذا كانت هناك وليمة، أو يراقب والديه وهما يبتعدان عنه معا، بينما يبقى هو قابعا فى البيت مع مربيته. ولربما يتجول بين أبهاء الفن أو يطوف بربوع أوربا، أو يذهب لمشاهدة الأفلام الأجنبية، لأن والديه يريان ألا يتمنع أى شىء عن طفلهما الوحيد،

ويشعران نوعا ما أن هذا « مناسب له » .. وقد يكون بعضه مناسبا، أما غير المناسب فهو فهمه الواضح أن هناك عقبة فى طريقه، فعندما يحدث شىء مثل هذا يصبح حقا «وحيدا فقط».

هذا هو ثمن « الوحدة » الذى يتصدر قائمة المساوىء، والذى يقال أن الطفل الوحيد يقاسى منه .. ومن الحقائق البينة أن أشد الوالدين تعلقا بطفلهما الوحيد لا يستطيعان أن يهيئا لطفلهما المحبوب نفس المواقف التى يستمتع بها حين يصادف أى طفل آخر قذر..

وكثيرا ما يرى الإنسان ذلك المنظر السيىء، منظر الطفل الوحيد وهو يسير خلف والديه مكتئبا، وهما يطوفان بالمتاجر .. أو المنظر الماثل فى الكآبة، منظر الوالدين يراقبان فى غير حماسة طفلهما وهو يلعب وحده على الشاطى !

إن كل طفل بحاجة إلى أطفال آخرين منذ اللحظة الأولى التى يدرج فيها على الأرض، وهو بحاجة إلى أخلاط وأعداد منهم لكى ينمو نموا سليما.

فإذا ما ووجهت هذه الحقيقة فى حينها، فإن الوالد الرشيد للطفل الوحيد سيتخذ الخطوات لعلاجها علاجا واقعيا، لأنه فى هذا العصر، عصر العائلات المحدودة العدد يواجه كثير من الآباء والأمهات نفس الموقف.. إذ تخرج الأم للبحث عن رفقاء للعب، فسرعان ما تجد باحثين مثلها فى كل مكان.

اللهم إلا فى الأماكن الشديدة العزلة .. ستجدهم فى أقرب منتزه، أو ساحة مكشوفة، أو ملعب عام، وستزور هذه الأماكن يحدوها تصميم قوى على عقد الصداقات.

ومعنى ذلك أنها ستختار مقعدا قريبا من غيرها من الأمهات ذوات الأطفال المتقاربى الأعمار، وتزود طفلها بلعبة يمكن أن يتم الاتصال عن طريقها: كرة، أو عربة، أو عروسة، أو جاروف، أو جردل، وستتعمد ابتسامات الود مع

الأم ومع الطفل على السواء، فتظفر له عن هذا الطريق بساعة من اللعب، وقد تحرص على البحث عن مقصورة فى قطار السكة الحديد تضم طفلا آخر، وعن مائدة فى المطعم يجلس إليها أطفال آخرون، وستسرها كذلك تلك المعرفة الطارئة التى قد تبدأ وتنتهى خلال رحلة أو على مائدة طعام.

بل أنها تعنى أكثر من هذا بفتح باب بيتها على مصراعيه لأصدقاء طفلها دون مبالاة بما قد يسببونه من هرج، أو قلب الأشياء رأسا على عقب أنه قرار يوضع مرة للسير عليه دائما، وهو أننا « نريد » أن يلعب طفلنا مع أطفال آخرين، وإدراك أن المكان الطبيعى الذى يلعبون فيه هو داخل البيت أو بالقرب منه.

قد يقول طفل فى الرابعة مبتهجا : « إن «ن» قادم اليوم لتناول الشاى ».. فتجيبه الأم فى ود : « اننى آسفة إذ لا أستطيع ذلك اليوم لأننى جد مشغولة » فيقول الطفل « ن » بنفس الروح الطيبة : « حسن جدا، ستذهب إذن إلي بيتنا الآخر» والناحيةر البارزة هنا هى أن كلا من الطفلين أصبح يعتبر بيته مكانا لاستقبال الأطفال الآخرين، وهو أمر أكبر أهمية بكثير من انتظار الدعوات الرسمية فى هذه السن.

وإذا عالجنا الموضوع على هذا الوجه، فإنا نبدأ بالشك فيما يسمى بالمساوىء، لأن مساوىء الطفل الوحيد فى الحقيقة تعمل لصالح الأطفال الآخرين .. فثمة عدد كبير جدا من الأطفال «المحظوظين» يتعرضون للسآمة القاتلة من جراء لعبهم مع إخوتهم وأخواتهمر .. سواء أكانوا يكبرونهم أم يصغرونهم سنا، بل أن السنة الواحدة تعد فارقا كبيرا فى العمر لمن هم دون الخامسة، وقد تجعل من العسير أو من خطل الرأى أن يلعب طفلان صغيران معا لفترات طويلة.

ولقد شهدنا جميعا حالات كثيرة، كانت فيها طفلة الرابعة تستبد عادة بأخت لها فى الثانية من عمرها، أو يشعر فيها ابن الثالثة دواما بالاخفاق وخيبة الأمل لأنه لا يستطيع أن يعمل ما يعمله طفل فى السادسة. ومن الإنصاف - فى الحقيقة - أن نذكر أن الأطفال الذين ينتمون إلى نفس العائلة، وتباعد بين أعمارهم فجوة تصل إلى ست أو سبع سنوات مثلا، يجب أن ينظر إليهم فى الحقيقة بوصفهم أطفالا وحيدين، وأن يتخذ لكل منهم ترتيب خاص بزمالتهم بمعزل عن الآخرين.

وحيثما تبدأ الميول الجنسية فى التباين بصورة قوية، كما يحدث ابتداء من سن الثالثة تقريبا، فإنه قد يكون من المؤلم حقا أن يرغم الأخوة والأخوات على اللعب معا، ولكنهم يدفعون إلى ذلك غالبا، لأنه لا يوجد بالقرب منهم أطفال «ظرفاء» .. أو حتى لأن وجود اثنين منهم فى البيت فيه الكفاية !

وإذن فالزمالة الحقيقية هى التى يحتاج إليها الطفل الوحيد كى يحيا حياة عاطفية سليمة، فهو يريد أن يكون من بين أصدقائه أطفال من كافة الألوان بدلا من اقتصاره على التحرك فى نطاق دائرة العائلة الضيقة التى يعرف عنها الكثير..

ثم إن مرحلة الحضانة ستمده بالخبرة الوافرة نتيجة لاختلاطه بغيره من الأطفال. وعندما يبلغ سنا مناسبة، فإن معسكرات الأطفال والفنادق ستهيىء له عطلات مثيرة أكثر مما يستطيع خير والدين أن يهيئاه له، ولا يستطيع أحد الإدعاء بأن هذه الصلات تعوض الحياة اليومية الاجتماعية المعتادة، والأخذ والعطاء فى عائلة عادية، ولكنها منابع صحية غنية بالزمالة بالنسبة للطفل الوحيد.

أما الحديث عن الأنانية، وعدم المشاركة، فيهبط إلى الحضيض بالنسبة

للطفل الوحيد الذى استمتع بهذه الحريات. يقول الزائر الصغير وهو يزاحم بمنكبيه عند باب الخروج : «أنا أخرج أولا .. لأننى ضيف» ويقابله الطفل الآخر بالمثل، ويدفعه، ولكنه على الأقل يتنازل عن السبق فى هذه المناسبة.

وتهبط الأنانية إلى أدنى حد بالمنطق المفحم، مما يسهل على طفل الثالثة فهمه : « لم يكن هناك داع لأن تصحب « د » إلى هنا إذا لم تدعه يلعب بلعبك». والواقع أن الحاجة الشديدة إلى رفقاء اللعب، غالبا ما تحفز الروح الاجتماعية العالية : « تعال انظر ما عندى .. لنلعب لعبة القطارات، ألا توافق ؟ خذ أنت هذه وآخذ أنا تلك ».

وإذ يحصل الطفل الوحيد على كل شىء، فإن تشجيعه على المشاركة يغلب أن يكون أيسر كثيرا من تشجيع طفل الأسرة المتعددة الأبناء الذى يضطر إلي الاحتفاظ بما يملك والدفاع عنه دون جميع الغرباء، وتظل تصدر منه ضجات الشكوى طوال فترة الطفولة : « .. «ب» أخذ بندقيتى ! اننى أعرف بندقيتى بكشط فى يدها !» ولا تقوى عبارة ودية كهذه : « لقد استعرت وشاحك الأحمر أمس، فهل يضيرك ذلك» على إشاعة المحبة بين الأطفال بالقدر الذى يفترضه الناس عامة.

أما الأمر الثالث، وهو القدر الذى يظفر به الطفل الوحيد من الرعاية – وتغييره أقل يسرا – فإن الطفل الوحيد يحصل من هذه الرعاية على قدرين مقابل قدر واحد للطفل الآخر، وقد يحصل بسهولة على أكثر من ذلك إذا كان جداه قريبين منه ؟.. أنه كل ما نملك، ولذا فنحن نتشبث به .. فأقواله المتزنة تحفظ لساعتها، وأحاديثه المازحة تكرر وتعاد .. أما عباراته الفظة فتهمل لتوها: «عندما يكون هادئا تجده طيبا للغاية، وعندما يكون ثائرا ..!» وكل شىء يقوله أو يفعله ينظر إليه من خلال منظار براق، وهذا أمر على أكبر جانب من الخطر!

من اليسير أن نفهم أن الابن الوحيد يصبح فى أغلب الأحيان مناط آمال والديه، فالأب قد يعمل بعد سن التقاعد ليهيئ له مستقبلا زاهرا، والأم تبذل قصارى جهدها لكى يكون ولدها فى المقدمة دائما .. وهما يصابان باليأس المرير إذ يخفق فى أى ناحية من نواحى نشاطه، ويطربون تماما إذ يوفق .. ولربما يحاط بقيود ضيقة كأنه « وتد » وضع فى نقرة مستديرة ، بحجة : «لقد كنت مصمما على الدوام على أن يتبع ابنى الوحيد خطواتى - أو لا يتبعها».

ولكن هذا جانب واحد من الصورة .. أما الجانب الآخر فيمكن أن يرينا أن الطفل الذى يشب محبوبا، يجد من اليسير أن يقابل الحب بالحب، وأن تمتد عواطفه المنزلية الكريمة إلى عدد أكبر كثيرا، وحينئذ يصبح هو بدوره قادرا فى النهاية على مزاولة مباهج العائلة .. وأن يعتز بها أكثر من ذى قبل، لأنه ظل محروما منها مدة طويلة. ولربما تكون الأبوة بالنسبة لمثل هذا الطفل تتمة سارة، كان والداه قد وضعا بذورها من قبل.

* * *

الفصل السادس :

كيف نبدأ تدريب الطفل الصغير ؟

ماذا نفعل كى نساعد الطفل على

تهذيب إرادته وتقوية عزيمته ؟

يغير الطفل - إبان نموه - موقفه من الناس الذين يعيشون فى بيئته المباشرة وفقا لحاجاته، ويتحكم دور النمو الذى يبلغه الطفل فى مطالبه منهم .. فالطفل الدارج الذى كان يرى فى والده « دبا » أليفا يحمله على ظهره، قد ينظر إليه - بعد مضى عشر سنوات - نظرة أقل ثقة بكثير عندما يحضر معه من المدرسة تقريرا متوسطا عن حالته. وفى أخريات دور المراهقة قد يشترك معه فى الألعاب والحديث كما لو كان أخا أكبر.

وهكذا تختلف علاقته بنا - وبغيرنا من الكبار- من وقت لآخر .. فقد يسرع إلينا فى سنيه الأولى طلبا للحماية .. ولكنه إذا ما أوشك عهد الطفولة على نهايته فقد يحاول أن يزيحنا عن طريقه ! وهو بين هذين الدورين قد يتطلب منا فى جميع الأوقات أكبر قدر من المشاركة الوجدانية سواء فى حالات الفشل أو النجاح.

إن قدرا كبيرا من المتاعب التى نلاقيها مع أطفالنا تنجم عن عدم إهتمامنا بحاجاتهم فى حينها، واخفاقنا فى مسايرة التغير الذى يطرأ على حياتهم .. فالطفل هو الذى يحدد خطوته منذ البداية، فإذا أردنا الاحتفاظ بصحبته فينبغى أن نكيف أنفسنا تبعا له، لا أن ننتظر منه أن يفعل هو ذلك نحونا .. لأنه لن يستطيع مطلقا بسبب عدم نضجه أن يلاحق مقاييس الكبار طوال الوقت دون أن يكبد نفسه مشقة خطيرة!

وإذن فمن الأهمية بمكان أن نعرف شيئا عن اتجاهات النمو عند الطفل العادى، وأن نفهم فهما واعيا ماذا يتوقع منا، وماذا يمكنه أن يقدم لنا إبان نموه.

ولهذا السبب خصصنا الفصول الثلاثة الأخيرة من هذا الباب لمناقشة أدوار ثلاثة جلية الوضوح في حياة الطفل، يغطى كل منها فترة كبيرة، كما يمثل كل منها مظهرا معينا واضح المعالم. وواضح أن هذا أبعد من أن يكون عرضا كاملا لتاريخ نمو الطفل، ولكنه يقدم لنا ثلاث مراحل هامة يمكن على أساسها عمل تخطيط عام.

وأول هذه الأدوار، من حيث الزمن ومن حيث أهميتها الأساسية بالنسبة للفرد، هو الفترة التى تعقب الطفولة الأولى .. أى من نهاية السنة الأولى حتى الثالثة، حيث يزداد النمو فى طول الطفل وتنفرج المسافة فيما بين ساقيه. ويقرر كثير من علماء النفس أن هذا الدور الذى يبدأ عندما يخلف الطفل أيام طفولته الأولى، وينتهى عندما يصبح منافسا صغيرا فى حياة مدرسة الحضانة، هو أشق أدوار الطفولة جميعا معالجة، ومعظم الكبار الذين ظلوا مدة طويلة يعنون بالأطفال خلال ذلك الوقت يتفقون على ذلك اتفاقا تاما.

وهذا الدور هو الذى يبكى فيه الطفل بشدة، ويلفت إليه أنظار الراكبين فى السيارة العامة لأنه يريد الجلوس فى مقعد وحده - فى حين يكون جالسا فى حجر أمه أو العكس - أو يتحدى جهود الرجال الأقوياء إذا ما أرادوا حمله من على الأرض، وصمم هو ألا يخطو خطوة أخرى، ويردد : « أمى هى التى تحملنى »، ولكنه لا يجد ما يمنعه من رفسها إذا ما عارضته.

وكلمة « لا » هى أشيع كلمة فى قاموسه اللغوى، وينخرط فى العويل لأن جدته كسرت أصبع الموز - وهو يريد أن يمسكه بيده - ومع ذلك لا يظهر أية

إشارة إلي ما كان يريده قبل أن تفعل ذلك ! وتدور المعارك على قدم وساق على أشياء تافهة فى الحياة اليومية، كالطعام، والاغتسال، وارتداء الملابس، والخروج، والدخول. وبرغم أنه يثير غضبنا ويغيظنا، ويغلق علينا سلوكه فلا نفهمه ..

فإن هذا الدور سيظل أكثر أدوار الطفولة تسلية وأدعاها إلى الإعجاب .. وبسبب إعجابه بالحياة وابتهاجه بها، ولهوه ومرحه فإن قلوبنا لا تطاوعنا على معاملته معاملة جادة لفترة طويلة.

ومع ذلك فهو مشكلة ، ولا أقل من مشكلة ، لأن أصدقاءنا الذين يرثون لحالنا يؤكدون لنا أنه سوف « يتعلم » وسوف « يستقر » وصوف « يتحسن سلوكه » بمضى الوقت .. انه الآن مشكلة حيوية. وعلى حسب الطريقة التى سيتعلم بها الآن يكون الشخص الذى سيتحول إليه فى المستقبل، ويجب أن يتم ذلك الآن وإلا فلن يتم مطلقا .. ومن ثم فإن تدبرنا الواعى لأمثل طريقة نتبعها لكى يجتاز الطفل هذا الدور، لعلى أعظم جانب من الأهمية.

لاشك أن كل طفل دارج مسئول عن هذه الغصة المستورة التى تشعر بها كل أم - « لا أستطيع أن أسوس طفلى » - وهى غصة تشعر بها الأمهات بين حين وآخر فى حياتهن .. فأين طفلها الذى كان فى فترة الحضانة يجلس فى عربته الصغيرة، بشعره الصوفى الأبيض، ويبتسم لكل عابر أمامه ابتسامة يكشف بها عن أسنانه الثمان جميعا .. إن أمامها فى مكانه الآن طفلا دارجا متعبا لا يكف عن تلويث نفسه بالرغم من المبدعة التى تغطى كل ملابسه، ولا يريد أن يلعب وحده لمدة دقيقتين، ويتبعها فى جميع أرجاء المنزل كأنه مربوط إليها بخيط غير مرئى .. وهو ماهر فى جذب أنظار الجمهور إلي قسوة أمه وعجزها عن السيطرة عليه !

إن أبرز ما فى الطفل الصغير، ولعله الشىء الوحيد الذى يتركز حوله

جميع الاعتراضات التى توجه له، هو قدرته على التعويق التى تتمثل فى مقاومته الإيجابية .. ولعلنا نتساءل : كيف تحول - خلال شهور قلائل فقط - من طفل وديع إلى طفل عنيد تعجز الأم عن مقاومة رغباته.

إن معظم الأمهات يلخصن هذا الأمر فى كلمة واحدة مثيرة هى «الطبع!» أو ربما «الشقاوة والطبع الشرس!» وهى شائبة وراثية يعزى انحدارها إليه عن أسرة والده، أو رغبة شريرة فى أن يكون «صاحب اليد العليا» . ويعصف هذا التأثير الغامض بالطفل كأنه عاصفة مفاجئة، كلما عورضت أقل رغبة من رغباته .. حين يرفض طلبه فى أن يعطى مزيدا من الحلوى وقت تناول الشاى، أو يمنع من السير بحذائه فى قناة ماء جار .. فهذه « السحب » التى لا تفتأ تحوم فوقه أبدا تفسد يومه، وتستطيع أن تحيل سحر شمسه الضاحية في عينى بعض الأمهات شؤما !.

ولابد أن يكون الطفل قد أظهر مضايقته منا علانية عدة مرات من قبل .. فهو منذ ولادته يصرخ عندما يوضع فى فراشه بدلا من تدليله، وحين تتركه ينتظر الطعام، وعندما نخرجه من حمامه .. ولكن هذه الآلاعيب كانت قصيرة العمر، إذ لم يكن يلبث النوم أن يسرع إليه ليهدىء ثائرته، وهو ينسى أحزانه عندما يتذوق أول جرعة من اللبن.

والطفل الدارج أقل استعدادا للاقتناع لأنه يعرف ما يريده بوضوح أكثر، ويعمد إلى هدفه بنشاط أوفر، ويرفض فى أغلب الأحيان أن يظهر الرضا قبل أن يجا إلى طلبه .. فإذا كان الطفل الجالس على كرسيه المرتفع يلتقط سكينا من فوق المائدة، فإنه سيعيدها راضيا إذا ما أعطى ملعقة الشاى بدلا منها .. ولكن طفل الثانية لا يخدع بهذه السهولة، فهو يقبض عليها بشدة ويناضل للاحتفاظ بها، وذلك لأن إرادته آخذة فى الظهور، وهى إرادة قوية جارفة.

والواقع أن كثيرا من الآباء والأمهات يدركون ذلك، وكثيرا ما يرددون : « إن له إرادته الخاصة، وهو يعرف دون شك ما يريد، فلا تستطيع الآن أن تقف فى سبيله». ولكن بالرغم من هذا كثيرا ما يهتمون فى بادىء الأمر باخضاع إرادته لارادتهم، وهى الطريقة الوحيدة فى رأيهم لأن يشب مهذبا مطيعا!

ولكن لو استطاع الأطفال فى هذه السن التعبير عن أفكارهم لأعلنوا دون شك أن أعظم غبن ينزل بهم هو أن حدة طباعنا تتخذ شواهد (نتخذها نحن) على « قوة إرادتنا » و «أننا نعلم ما نفعله» و «عدالة مطلبنا» على حين أننا نعزو حدة طباعهم إلى استعداد سيىء يجتث بأى ثمن !.

وليس الدارج وحده هو الذى يندفع تحت تأثير نمو إرادته الطبيعى إلى تنفيذ رغباته الخاطئة، ولكنه يريد الآن أشياء أكثر بكثير مما كان يرغب فيه أيام طفولته الأولى، فمطالب الطفل الصغير قليلة ويمكن اشباعها بسهولة .. بينما مطالب - أو بالأحرى رغبات الدارج - لا نهاية لها، وهذه فى جملتها نتيجة للقدرة الجديدة على تحركه هنا وهنالك دون معاونة.

،وأنه لمن مفارقات الحياة أن تنتظر الأم مبهورة الأنفاس حبو طفلها الذى يدفع ساقيه السمينتين فوق جسمه إلى الوراء وهو منبطح على البساط، والذي تسنده من ابطيه، وتسر لرؤية قدميه العاريتين وهما تضربان الأرض .. هذه الأم سرعان ما تأسف فى مناسبات كثيرة لأن «حمله فى عربته الصغيرة لم يعد شيئا مأمونا ..» ولأنه غدا كسجين أطلق سراحه على التو.. لقد تحرر وأصبح فى استطاعته أن يذهب حيث يريد، وهو يريد أن يذهب إلى كل مكان..!

ويحتاج هذا التطور إلي عين عطوف لإدراك مقدار ما فيه من فتنة .. أن الدمى تفقد جاذبيتها فى هذا الوقت، وكل ما يريد الطفل الدارج أن يفعله هو أن

يمشى . وهو يستطيع أن ينهك أى بالغ أخذ بيده. وهو يزدرى – فى أروع الحفلات تنظيما – القبعات الورق، والكرات الطائرة (البالونات) وألوان الحلوى الهلامية وما إليها، إذ ليس هناك .ما يسلب لبه أكثر من الجرى إلى خارج الغرفة وتسلق بضع درجات من السلم !

وبالإضافة إلى الحرية التى يظفر بها الطفل، يتاح له مزيد من أنواع المسرات الممنوعة كالاقتراب من النار، ومن وعاء الفحم، وناصية السلم، والباب المؤدى إلى الحديقة. ويتبع ذلك قائمة طويلة من أوامر المنع : « لا .. هذا عمل سيىء ! .. هذا يخص والدتك .... لوالدك .. تعال هنا .. لا !» .

ولا مناص، ما دام الطفل لم يحصل كذلك على حرية .... كبيرة، من أن يستمر فى نضاله بطريقته الوحيدة التى يملكها وهى «القوة» .. ولذا فانه يرفس، ويتشاجر، ويصفع، ويخدش، ويصرخ. وهو لا يستطيع أن يناقش أو يدافع عن قضيته، أو يوضح ضرورة حصوله على هذا الشىء أو ذاك.. فإذا قابلنا سلوكه بنفس الطريقة، فإنه سوف يناضل نضال المستميت.

فالموقف حينئذ حالة من حالات النمو .. وحقيقة أنه غالبا ما يفهم على هذا الوصف، وأن كثيرين من الآباء والأمهات يواجهونه بحزم : « أما أن نعمل الأن والا فلن نعمل أبدا .. يجب أن يعرف من هو صاحب الكلمة .. إذا تحكم الآن، فلابد أن نضع نيرا على ظهورنا..» وكثيرا جدا ما يعالج الأمر بعنف، فتلطمه لطمة أو لطمتين بحجة أنه يجب أن يتعلم ..

ولكن لسوء الحظ أن الطفل لا يتعلم بالسرعة التى تبدو لنا فى ظاهر الأمر، فقد تقول الأم فى زهو : « أنه لم يلمس الباب بعد ذلك مرة أخرى » .. وهو يفعل ذلك حقا .. ولكن من المحتمل – بل من الراجح – أنه استعاض عن ذلك الصنيع بشىء أكثر إزعاجا بكثير، كرفضه الطعام، أو التبول فى وقت غير

مناسب وفى مكان غير مناسب (وهذان هما سلاح الطفل الرئيسى الذى يستخدمه أما : الامتناع عن الأكل، وعدم المحافظة على النظافة وجفاف الملابس).

ويجب أن تكون العقوبة قاسية – ممتدة إلي فترة طويلة – إذا ما أردنا حقيقة أن تكون لنا «اليد العليا» .. ولكن إذا ظفرنا بها، فماذا نكون قد كسبنا؟.. إن الطفل الذي يفقد إرادته الشخصية هو نفس الطفل الذى سنقول له بعد عشر سنوات أو خمس عشرة سنة : « أليس لك عقل تفكر به لنفسك ؟.. ألا تستطيع أن تقرر شيئا لنفسك؟» . لقد انتزعنا من شخصيته، وتركنا مكانه قصبة فى مهب الريح !

وهكذا دواليك، فإن رزقنا طفلا حاد المزاج فسنحصد «محصولا» من الأحزان يستنفد نشاطنا الحيوى، ويعبد الطريق لناشىء مكابر عنيد لأنه لم يتعلم قط أن يرجع عن عزمه بحزم .. ويدفعه غيظه الفج من العالم إلى ثورة دائمة.

وهذا ثمن مخيف .. وكثير ممن أدركوا فداحة هذا الثمن تحولوا من النقيض إلى النقض. إن الطفل يجب ألا يشعر بالقنوط – مهما كلفنا ذلك من ثمن – وإن كنا نحن قد أصبحنا نشعر بذلك. أنه لا يريد ارتداء المعطف الذى ابتعناه له، ولذا فنحن نستغنى عن شراء قميص جديد لكى نمده بمعطف آخر.

ويرتجف كل من فى البيت من البرد لأنه يصر على ترك الباب الخلفي مفتوحا .. ولا ندرك القطار لأنه «لم يدخل إلى القطار فورا» .. ولا نجرؤ على تلبية نداء التليفون لأنه كان يجأر بطلباته .. وإذ يبلغ سن الرشد يغدو شخصا غير محتمل، طاغية فى البيت يجأر بأوامره، ويصفق الأبواب كلما ألم به حنق خفيف .. وهو فى حقيقة الأمر ذلك «الدارج» الذى يرفض له شئ.

فأى طريق يظل إذن مفتوحا أمامنا؟.. لم يبق غير طريق واحد فيه انصاف لأطفالنا وانصاف لأنفسنا، وهو أننا يجب أن نبدأ بالاعتراف بقوة رغبات الطفل وضرورتها، فالأم إذ تقول لطفلها:« سنذهب لشراء اللحم الآن ..»

فيقول الطفل : «ولكنى لا أريد أن أذهب.. إننى أرغب فى الذهاب إلى الأراجيح» يجب على الأم أن تتحايل فى مسلكها نحوه فتقول : «حسنا.. إذا تهيأنا للخروج بسرعة، فسيكون فى وسعنا أن نعرج على الأراجيح» .

فإذا ما أخفقت هذه الحيلة تقول : «هل تعرف أنهم يصلحون الطريق هناك ؟ أنه فى وسعنا رؤية الهراسة البخارية وهى تعمل». وكثيرا ما يجمل اقتراح كهذا، مثل هذه الرحلة أكثر امتاعا وجاذبية : «هل تذهب معى ؟ تعال معى الآن .. اننى أرغب فى أن تصحبنى» .. ولن يرفض هذا الاقتراح كالمعتاد.

والوقت الذى لا يحمل الا مفهوما ضئيلا فى ذهن هؤلاء الأطفال، وهو كذلك إلى حد كبير بالنسبة لنا، يجب أن ينظم بالاشتراك بيننا.. والمغالاة فى تحديد أوقات العمل، وتوقيت موعد طعام الظهر بالساعة الواحدة مثلا، وإعلان هذا الموعد قبل ذلك بخمس دقائق بعبارة : «تعال الآن بعد أن تغسل يديك !» فيه تحقير للطفل الذى يكون فى تلك اللحظة منهمكا فى عمليات البناء بالحديقة، وعدم مراعاة لشعوره..

ولكن إذا نزلت إلي الحديقة وتجولت حوله - قبل ذلك بربع ساعة - لمعاينة ماشيده من التحصينات، واظهار إعجابك بها، ثم قلت له : «حسنا، لقد أعددت الطعام.. فهل تنجز هذا الجزء القليل ثم تدخل ؟» فإن هذه العبارة ستغير الموقف..

وإذا كان ثمة رفض، فإن إشارة فيها ترضية مثل : «إلي أى مدى تريد أن تعمل ؟» لقمينة بأرق إجابة : «كنت أرغب فى أن أصل بالحائط إلى هذا

الارتفاع» وحينئذ نستطيع أن نقول بلطف : «حسنا، سأنتظرك حتى تنجزه» دون أن نشعر باستسلامنا له. حقا أنه فى كل عشر حالات مقابل حالة واحدة فقط سيحضر متأخرا خمس دقائق، ولكنه سيكون مبتسما راضيا !.

إننا نغذى عددا كبيرا من هذه الثورات المبكرة بهذه الضروب من أفكارنا المتعمقة، ولا نزال نطلب أن تكون لنا السلطة المطلقة على الطفل الدارج.. تلك السلطة التى كنا نفرضها على الطفل الصغير : «تعال هنا حالا !.. هل تسمع ما قلته لك ؟.. أتجرؤ على تركى فى انتظارك !» .

فهذه العبارات تعد تحديا للطفل العادى وسرعان ما يقبل التحدى. وتقول الأم لابنتها : «انك لا تتجاسرين على صعود هذه الدرجات!» وتتمسك الطفلة مباشرة بصعود الدرج، فتقول الأم : «ها هى قد فعلت».

يجب أن نضع نصب أعيننا ثلاثة أشياء عن معاملة أطفالنا فى السن المبكرة. أولا، يجب أن نعلمهم أن لغيرهم من الناس رغبات ومطالب مثلهم تماما، وهم لن يتعلموا هذه الحقيقة إلا إذا منحناهم الفرصة مرات لتنفيذ رغباتهم ورغباتنا، لأن هذه هى سن البراءة الحقيقية التى تشهد العالم مهيئا ومستعدا لخدمتهم ..

فهؤلاء الأطفال أبرياء خارج البيت، إذا ما أخطئوا وأساءوا فإنما يفعلون ذلك فى أول الأمر لأنهم لا يعرفون غشا، وليس بسبب الخطيئة الأصلية، فإن كنا أمناء معهم ومنحناهم حرية التصرف كلما استطعنا، وطالبنا بتنفيذ أوامرنا - إذا عجزنا أن نهيىء لهم هذه الحرية - فستدهشنا السرعة والسماحة اللتين سيقبلون بهما موقفنا.

* اننى متأسف إذ لا أستطيع أن أطلعك الآن على الكتاب، وسأطلعك عليه بعد تناول الشاى» هذا النوع من «الحل الوسط» سيقابل دون شك بالموافقة

إذا كان الطفل يعرف أن هذه العبارة تعنى شيئا ما، وهو أن الكتاب سيعطى له بعد تناول الشاىء. وقد تقول إحدى الأمهات مبدية إعجابها بطفل جارة لها : «أنه طفل عاقل.. أنه يحسن الاصغاء إليك حين تتحدث إليه» والواقع أنه يصغى لأنه تعلم أن لكلمات أمه معنى، وليست مجرد ثرثرة قصدت أن تسكته بها أو تصرف بها انتباهه، كأن تقول : «إنك لا تريد هذا الآن بالتأكيد .. فى وقت آخر.. ليس الآن .. ربما .. سنسأل والدك» أن هذه الجولة الغامضة هى التى تثير حنق الطفل الذي تحتاج رغباته الملحة إلي حل حاسم، فنضطره إلى أن يصبح : «ولكنى أريدها ! أريدها الآن!.. أريدها».

وثانيا، يجب أن نتأكد تماما من أن نزولنا على رغبة الطفل هو الطريق العملى لعلاج الموقف، وليس تجنبنا إياه الذي يرجع إلى عدم وجود هدف خاص لنا. إننا سنضحى برغبتنا لشخص آخر- حتى لو كان هذا الشخص هو طفلنا الصغير- وذلك لأننا نعلم أنه عن هذا الطريق سيتعلم التضحية برغبته لتحقيق رغبتنا: «لقد ساعدتك على تنظيف بيت عرسوتك، والآن أريد أن تساعدينى على تنظيم الحجرة».

وينبغى أن نرفض رفضا باتا أن نشتبك معه فى معركة، وأن نمحو فكرة الانتصار، ونقضى على مسألة اختلاف الرأى :« أنا متأسف، لأننى لا أستطيع اليوم السماح لك بتناول مثلجات، فلقد ابتعنا بعض الحلوى، ألا تذكر؟

فبدلا من أن تعبس، تعال نشترك معا فى رسم بعض اللوحات». وينبغى أن نتذكر دائما أننا لن نستطيع مطلقا أن نعلم طفلنا هدوء الطبع ما لم نحتفظ نحن بأعصابنا!

وثالثا، يجب أن نفهم أن ما نفعله ليس هو «تدريب طفل دارج»، بل «تربية طفل» لكى يصبح راشدا، ومعالجتنا للأمر فى هذه المرحلة هو الذي يقرر المستقبل، فابن الثالثة الذى يفلت زمامه من أيدينا لا يمكن أن يستقر فى كبره،

فمثلا «س» لا يمكن أن يقذف صديقا له «بالنبلة» إذا لم يكن قد انطوى صدره على روح خبيث قبل ذلك بعدة سنوات. إن واجبنا هو معاونة الطفل على تهذيب إرادته حتى يصبح فى قوة أخلاق الراشد، لا أن نستأصلها فيظل عاجزا كريشة فى مهب الريح.

* * *

الفصل السابع :

العصر الذهبى

ما هى المطالب الضرزورية للطفل فى
أثناء المراحل الدراسية المختلفة ؟

إذا كنا قد وصفنا سنوات الحضانة بعهد البراءة عند الأطفال، فإنه يحق لنا أن نطلق على السنوات التالية لها- أى حين يكون الطفل قد استقرت به الحال فى المدرسة - وهو فيما بين السابعة والحادية عشرة - العصر الذهبى، حيث لا يتمتع الطفل فى أى وقت آخر بكامل حريته فى الاستمتاع بحياته كما يتمتع فى هذه الفترة..

فقد تخلص من الرقابة الشديدة التى كانت مفروضة عليه منذ عام أو عامين، وليست به حاجة إلى إزعاج نفسه بالسؤال الخطير: «ماذا سيفعل فى المستقبل؟».. ونتيجة لذلك لا تكون معاملة الطفل فى أى وقت آخر أيسر ولا أمتع منها فى هذا الوقت.

وهناك عدة أسباب لهذه الحالة المباركة.. فهذه السنوات الذهبية تتسم قبل كل شىء بالصحة البدنية، حيث يكون الطفل قد اجتاز أمراض الحصبة، والتهاب الغدة النكفية، والحماق «جدرى الميه»، ولا يكون قد أصبح بعد فريسة لأمراض المراهقة كالنسيان، والمرض الأخضر (الرماع)، ويتمتع بنشاط لا يهن يسمح له بالوقوف على قدميه من الصباح حتى المساء، كما يعرف الكبار ذلك جد المعرفة.

حقا أن بعضنا يرى من العسير أن يتحمل بعض الخصائص التى يتصف بها الطفل فى هذه الآونة.. فالبنات يتسمن بغرابة الأطوار، والأولاد تبدو

عليهم العربدة، فى حين أننا نرغب فى أن تتشبه البنات نوعا ما – بالسيدات، أى يكن رقيقات الشعور هادئات.. وأن تبدو على الأولاد سمات الرجولة فيلعبون ألعابا هادئة، ولكن كم تكون هذه الحياة الفياضة أقوى على لفت نظرنا من ذلك الاسترخاء الذي طالما ينتاب الفتى والفتاة فى سن الثالثة عشرة !.

إن هؤلاء الأطفال يتفجرون بالحياة، وهم محتاجون إلى كثير من الفرص – وخاصة بعد المدرسة حيث يظلون بها محبوسين – لكى يجروا، ويقفزوا، ويتعاركوا، وينهكوا طاقتهم، ومن الخير أن نتركهم يمرحون كالجراء، بل ربما يحمدون للمسئولين تركهم لبعض المناطق دون تعمير، طالما أن هذه الأمكنة المهجورة تكفل لهؤلاء الصغار ميدانا للعب والجرى والقفز أو الصيد.

وفوق ذلك، فهى سنوات إزدهار الثقة بالنفس تتضاءل فيها البقية الباقية من التعلق بالأم – وهو ما يتميز به عهد الطفولة الأولى – إذ يستطيع طفل المدرسة أن يتصرف بنفسه فى حالة الطوارىء الصغيرة التى تصادفه فى الحياة، فالركبة المجروحة يمكن أن يمسحها بمنديل قذر لا بالجرى إلى داخل المنزل يولول طلبا للمساعدة.

وإذا ضل الطريق فانه يستطيع أن يسأل عنه، أو يقدم نفسه لرجل الشرطة. وإذا عاد إلى البيت على غير انتظار، ووجد أمه خارج البيت، فانه يستطيع أن يعد لنفسه شيئا يأكله ثم يعود أدراجه.

وهى فترة من الحياة قد يستخف فيها الطفل بتناول فنجان لذيذ من الشاى مع عمته، أو ربما يرفض مرافقة أمه إلي نزهة، كى يقضى وقتا طيبا فى اللعب مع رفاقه.. والأم العاقلة هى التى تسلم بالحافز الذى يدفع الطفل إلى الاستقلال بنفسه أو التشبه بالكبار والعمل مع أقرانه بدلا من التلكؤ خلفها كما كان يفعل منذ عام أو عامين!

وتصغر قامة الكبار فى أعين الأطفال فى هذه السن إلى الحد المناسب، فلا يرونهم بعد «مردة» ممدوى الخطا - كما كانت الحال فى المراحل الأولى من الطفولة - أو الحراس الغيورين المميزين الذين يشتبك المراهق معهم فى نضال، وتقاس قيمتهم بحسب قدرتهم على سد المطالب وتقديم مصروف الجيب والورق المقوى والطعام، وصناديق الاشغال اليدوية الصغيرة، فيستخدمها الأطفال على الوجه الذى يقصد من استخدامها.

وهم يحادثون الكتبى فى هذه السن على النحو الآتى : «هل تستطيع أن تدلنى على كتاب جيد أقرأه؟.. لقد قرأت كتاب ..»، وسوف يدققون فى وصف أذواقهم الأدبية للكتبى، وإذا اعترضتهم صعوبة في التعرف على مكان، قالوا : «لنسأل رجل الشرطة فهو لاشك يعرف !» ثم ينفذون الاقتراح على الفور.

وهم يقتربون من حراس المتاحف، وسائقى السيارات العامة، وحراس المتنزهات، ومستخدمى السكك الحديدية، يسألون كل هؤلاء الرجال كأنهم ند لند : «أتسمح بأن تدلنا على..؟ فيم يستخدم هذا؟.. ألا توجد نماذج غير هذه؟»

وهم يحملون مدرسيهمر على مجاراة تيار إهتمامهم بدلا من دفع مدرسيهم لهم أو سحبهم إياهم :«ماذا سنفعل بعد الظهر؟.. أيمكننا أن نصنع كمية من هذه؟.. أيمكننا أن نقوم بتنظيم لعبة بأنفسنا؟.. لقد طرأت على ذهنى فكرة..»،

ومن ثم، فإن علاقتهم بالكبار تكون غالبا أكثر انسجاما منها فى جميع سنى الطفولة .. فهم يزورون الأصدقاء، ويرون الاتصال بهم أمرا يسيرا، ويتمعون بحسن عشرتهم. وهم فى هذا الدور يفضلون - فوق كل شىء - العمل فى جماعات، إذ يجدون فى «جو» هذه الجماعة الحافز الذى يحتاجون إليه لكى يعيشوا حياة غنية بالخيال..

وذلك لأن هؤلاء الأولاد والبنات الصغار الذين تبدو عليهم الصلابة والخشونة - فى الواقع - لم يطرحوا بعد وراءهم «عالم الجنيات» برغم بعد عهدهم بالقصص الخرافية التى تتحدث فيها الأرانب والأزهار المسحورة. لقد عرفوا عن تسيير قطاراتهم على الأرض، وأصبحوا يشعرون بالخجل إذا ماشوهدوا وهم يجرون عربات العرائس الصغيرة، وهم يقومون بمغامرات طائشة فى أماكن بعيدة..

فتراهم يتبادلون إطلاق النار من فوق الأسوار التى تكسوها النباتات فى أطراف المدينة، ويتساقطون متصنعين الموت، ويصدرون أنات مخيفة، ويندفعون إلي الصبى الذى يأسر فتاة فيقيدونها إلي عمود النور بالحبل الذى تستخدمه فى القفز، ويصيحون : «قيدوهن .. قيدوهن»، بل وتجرى الفتيات أنفسهن ويتصايحن مع الجماعة ملتمسات أن ينقبض عليهن أيضا!

* * *

وإذا كانت الشوارع محرمة عليهم، فإنهم يطلبون أن يعسكروا بداخل حديقة فى خيمة من صنع أيديهم، ويفضلون الخبز والسردين على وجبة الطعام الساخنة التى تقدم لهم بمنازلهم على صحاف، ويختارون مستودعا شديد البرودة من مستودعات السيارات، أو إحدى غرف المهملات لتخطيط مؤامراتهم العجيبة ومقابلاتهم المحببة لتكوين الجمعيات السرية وحلف الأيمان المرعبة !

وإذن، فبدلا من أن نتوقع من هؤلاء الأطفال اختيار صديق لهم من داخل البيت لكى يلعبوا معه بطريقة مهذبة كل مساء، ينبغى أن نعاونهم ونغريهم باللهو، فنعد لهم قدرا من الطعام الشهى لرحلة يوم، وننفحهم بمبلغ من المال لكى يقفوا على معالم مدينتهم، ويقوموا بالزيارات التقليدية لحديقة الحيوان والمتاحف بأنفسهم.

وهناك ميزة أخرى لهؤلاء الأطفال ننظر إليها فى عطف دون شك، ولكنا قلما نفعل شيئا إزاءها، وهى خيالهم الحى.. ومع ذلك فهم فى غنى عن الرثاء من أجلهم لأنهم يشبعون خيالهم عن طريق المغامرات التى يستمعون إليها فى المذياع أو يشاهدونها في التليفزيون أو السينما.. كل ذلك يتجمع فى رءوسهم من القصة، والصورة، والأخبار.

ومن اليسير أن تسخر من صنيعهم، وأن تشعر أنهم وقد تركوا عهد الطفولة الأولى يجب أن ينبذوا تصرفات الأطفال.. ولكنهم لايزالون أطفالا، ولا يزال خيالهم أشد حيوية وأكثر جسارة مما كانوا فى عهد ماقبل المدرسة. وبعد عام أو عامين سنصب عليهم الإهانات لأنهم يشغلون أنفسهم بأشياء مادية، فالطفل «ب» يرفض مثلا أن يلبس سروالا قصيرا، و«ا» تطلب أصبعا من أحمر الشفاه!

* * *

وبالرغم من أن ألعابهم قد تصدمنا بخشونتها، أو تضايقنا بضجيجها، فهى تعنى بالنسبة إليهم شيئا ما، وهى ضرورية فى هذا الدور من أدوار نموهم .. فهذه الصور المصغرة للقصص البوليسية، ولهجات الشرطة على قطاع الطرق، تبرز صفات القيادة والجرأة، والمهارة فى القفز والجرى والاستخفاء والقبض.. وهى تعلم الطفل التغلب على مخاوفه والتعاون مع غيره، وأن يأتمر ويأمر.

وقصارى القول أنها تعلمه التعايش مع الآخرين. والألعاب بهذا الوصف ذات قيمة تختلف عن ألعاب البيت التى يتحتم أن يلعبها الطفل على مسئوليته الخاصة.. فمن طريق السماح للأطفال بالانطلاق على هذا الوجه، يمكن أن «يستقروا» فى الوقت الملائم، ويصبحوا فى سلام مع العالم ومع أنفسهم، لأنهم عندئذ يكونون قد أشبعوا هوايتهم.

وعلينا تحن أن نجعل هذه الهوايات مبهجة، فنسخو عليهم - بأشياء لا تكلفنا كثيرا- كزركشة ملابسهم، وبسراويل الركوب التى لا نزال نتمنى أن نرتديها مرة أخرى، وبالسجوف الشرقية الفاخرة التى اختفت فى الوقت الحاضر، كما نقدم لهم الريش والشرائط المزينة و«المجوهرات» القاتمة اللون التى نبذناها، ويمكننا كذلك أن نفيدهم فى حياكة أغطية الرأس، وتكديس الأدوات لتموين مراكز الجماعة، وألا نسخر بحال من الأحوال من المشروعات التىيقترحونها.

ومع ذلك فإن السنوات الذهبية ليست كلها ورودا .. فالاكتفاء الذاتى الظاهرى عند هؤلاء الأطفال الذى يناقض بوضوح حبهم للاتصال منذ عام أو عامين، وتهيبهم الذى يعقب ذلك فى أغلب الأحيان.. كل هذا يخدع الراشد الذى تسيطر عليه فكرة «أنه الآن ولد كبير».

وقد يشعر بالضيق أو الخوف عندما يلمس في طفل الثامنة أو التاسعة معالم الضعف أو الحنين إلى التدليل مرة أخرى، أو تواتر بكائه من مسائل الحساب التى قد لا تكون صحيحة، أو خوفه من طفل مشاغب فى مدرسته الجديدة.

وقد يشعر الراشد باضطراره إلى القيام بعمل مضاد، فبذكر الطفل بأنه فى سن مناسبة لكى يدافع عن نفسه بنفسه، أو أنه يجب أن يتعلم الاعتماد على نفسه، فى حين أنه كان يرغب من قبل فى الاصغاء إلى الطفل وتشجيعه ومعاونته على تنسيق مشكلاته الخاصة.

* * *

وقد أثقلنا فى السنوات الأخيرة هذه الكواهل الصغيرة بعبء إضافى باختبار نهاية المرحلة الابتدائية الذى يبعث شبحه فى نفس الطفل الوجل، حتى

وهو ما يزال فى غضون السابعة من عمره، ويتزايد التذمر من التقدم والتأخر، والتدريب والذكاء، بما ينذر بالسوء. وسرعان ما تنتفخ حقائب الكتب الصغيرة التى كانت تحمل كعك الصباح وعلبة الألوان، بكتب الحساب والمطالعة لأداء الواجبات المنزلية !

وسيدهش الآباء والأمهات الذين يستنفدون قواهم فى محاولة جعل أطفالهم المتهورين يدركون وقار السنوات القليلة التالية، إذا عرفوا كيف يجعل الطفل من ذلك هما يثقل تفكيره قبيل نومه !.. فلا عجب إذا كان الطفل المهموم الذى لا يجسر على أن يدع نفسه حرة طليقة لأن «سنه كافية لمعرفة أوفر» يأخذ فجأة بطريقة غامضة فى تبلبل فراشه، أو فى السرقة، أو تنمو عنده عادة العنف الهستيرى الشديد.

يجب أن نكون واقعيين إزاء هذه الأشياء بطبيعة الحال، لأننا لا نستطيع أن ندلل الطفل على حجورنا بصورة دائمة ونجفف دموعه .. أننا نريد أن نبذل جهدنا لخير أطفالنا، وأن نراهم ملتزمين جادة الانصاف، ولكن فلنتعقل نحن فى آمالنا ونتنبه إلي مطالبهم المتغيرة على توالى السنين، ولنطامن من طموحنا فيهم بالقدر الذى يطيقون.

ويجب أن نضع نصب أعيننا - قبل كل شىء - أن نصر اصرارا تاما على أن ضروب نجاحهم سوف لا يكون لها أية قيمة، إذا ما تخلف نموهم العاطفى الذى يتقدم كثيرا عن طريق الزمالة الطليقة مع الأطفال الآخرين فى هذا الوقت.

إن التجربة وصواب الحكم قد أكدا - منذ أمد بعيد - وجود الطاقة الغامرة، والرغبة فى الاختلاط بالآخرين، اللتين يتسم بهما هذا الدور من أدوار الطفولة، وقد استغلت هذه الميول فى إنشاء شتى أنواع الأندية الرسمية.

ويحتاج الطفل قبل هذا الدور، إلى حد بعيد جدا، إلى أن يرضى الراشد عن مشاركته الأطفال ممن فى مثل عمره - مدة طويلة - .

ولكنه الآن يمكنه أن ينخرط عفوا فى الجماعة التى يفضلها، فهو يستطيع أن يكون عضوا بأحد الأندية ذات النشاط الرياضى، كما تستطيع أخته أن تستمتع بفروع النشاط النسائية المماثلة.

* * *

إن أمثال هذه الجماعات أكثر فائدة من الجمعيات السرية التى قد يشكلها هؤلاء الأطفال إذا ما تركناهم وشأنهم، لأن هذه الجمعيات يجب أن تكون خاضعة للرقابة.. إذ أنه من المستحب أن تكون هناك بعض المراقبة لكبح عناصر الجرأة التى قد تكون قوية للغاية فى هذه السن، وكثير جدا من هؤلاء الأطفال يصابون بأذي لجهلهم ما يفعلون .. فهم يسلكون مثلا طرقا غير مشروعة، أو يعتدون على ممتلكات غيرهم الخاصة.

وفضلا عن ذلك، فإن القادة المدربين فى مثل هذه الأندية قد يستطيعون ضبط الزمام بطريقة أجدى .. فالعمل لكسب الشارات، وألعاب المنافسة، وفروع النشاط المختلفة، لا تهيىء للطفل المعرفة النافعة فحسب، ولكنها تمده بحافز قلما يعثر عليه بنفسه.

وأخيرا، فإن الخبير الفطين يراقب كل فرد، ويروض المشاغب، ويشجع الخجول.. أما ترك الأطفال وشأنهم لتكوين الجماعات الخاصة، فمعناه غالبا تراجع الطفل الضعيف وإهماله، فى حين أن الطفل المشاكس يحكم السرب على الدوام وفى جميع الأحوال!

وإذا أردنا أن يتعلم أولادنا معايشة الآخرين، وأن تمتد مسرتهم الخاصة إلى مسرة مصدرها عمل شىء لصالح المجموعة، فإنا لا نستطيع أن نفعل

خيرا من تشجيعهم على الالتحاق بناد من هذه الأندية، لأنه من الأفضل حقا للطفل فى هذه السن أن يكون عضوا فى جماعة من أن يظل وحيدا ناشزا .

وواضح أن الطفل الذى تعلم فى سنى الحضانة مسايرة الآخرين، وتعلم أن يعطى ويأخذ فى دائرة عائلته.. بل وسمح له بالاحتفاظ بشخصيته غير مثلمة (الثلمة : الكسر) ، سيصل بنفسه إلى عهده الذهبى ..

بينما يواجه الطفل الذى لم يبال بغيره نتيجة لولع والديه به، منافسة الأطفال ممن فى مثل سنه.. وسرعان ما سيعالج أمر إصراره على مزاولة اللعبة التى يريدها دون غيرها، وأن يأخذ منها النصيب الذى يروقه بأن «يفصل دون رحمة من الجماعة» ولا بعاد قبوله إلا إذا رضى صاغرا بأن يكون أقل أفراد الجماعة شأنا!..

ويحدث مثل هذا للطفل الخامل الذى يقابل بترحيب فاتر إلي أن يثبت بعد مشاحنة أو مشاحنتين أنه يستطيع الوقوف قويا على قدميه!.

وعندما نبحث موضوع الأطفال، فإنا غالبا ما نهتم إهتماما خاصا – أول الأمر– بمن هم دون الخامسة، ثم بالمراهقين، لأن الفريقين هما اللذان يشكلان الصعوبة الظاهرة، أما فيما بين هذين الدورين فيكون اعتماد مطالبهم علينا .

ولما كانت هذه المطالب ليست ثقيلة الاحتمال كمطالب الأطفال الصغار أو الكبار منهم – سواء من الأولاد أو من البنات – فقد يكون هذا هو السبب الأهم فى أننا نحلهم المحل الأول من تفكيرنا، ونشاركهم بقلوبنا فى مسراتهم.

* * *

الفصل الثامن :

حيث يلتقى الجدول بالنهر

ماهى رغبالت المراهق ؟.

وكيف نستطيع أن نحسن معاملته ؟

ليس المراهق عادة هو أكثر من نميل إليه من بين أطفالنا، فإن كثيرين من آباء وأمهات الأطفال الأكبر نوعا - سواء أكانوا من البنين أم البنات - يحنون إلى الماضى، حين كانت ذريتهم صغيرة بين أحضانهم، أو حين كانت أكبر من ذلك قليلا وأكثر تسلية. وكثير من المعلمين يحاربون الخجل عند المراهقين، ويفضلون ملازمة الأطفال الأصغر سنا الذين لا يسببون إلا عددا قليلا من مشكلات التهذيب.

والرأى السائد هو أن الأطفال : «يتسمون بالطاعة ما داموا أطفالا».. أى حين يمكن « ضبطهم» في الوضع الملائم.. ولكن المراهقة دور، اجتيازه مربك إلي حد ما، لأنه ينقل الطفل بصورة عجيبة إلي شخص راشد، والواقع أنه قد يكون فى تصريح كثير منا أننا نحب أطفالنا ولكنا لا نميل إليهم، ما يوجب اللوم!

والسبب الجوهرى فى عدم ميلنا اليهم - بطبيعة الحال - هو تعدد ما يبدونه من ألوان السلوك العنيف .. فكثيرا ما يكونون فى البيت وقحاء متخاصمين، وتكون ثورتهم مصحوبة بتلك العبارة الرتيبة : «لم أعد صبيا.. ليس من حقك أن تأمرنى». وينقصهم الاحتفاء بضيوف العائلة بنوع خاص : «آه، أستزورنا مرة أخرى ؟.. اننى سأترك البيت!»، أو يحتفون بمثل هذه المناسبة فى خجل أو استهزاء.. وذلك بالبعد كلية عن النقاش الهادىء.

وفى المدرسة، أى فى الوقت الذى نشعر فيه بأن إهتماماتهم بدأت تتفتح.. إذ يظهرون شيئا منها، نجدهم متأخرين فى أغلب الأحيان، غارقين فى أحلام اليقظة، يهملون واجباتهم المنزلية ويتراخون فوق أدراجهم، ويغيرون مشروعات مستقبلهم شهرا بعد شهر.

وهم مكروهون غالبا فى الحياة العامة كراهية عميقة، وخاصة حين يكونون جماعة.. ولا ينسى أحد ممن يسافرون بالقطار أو بالسيارة العامة، التى تحمل عددا كبيرا من تلاميذ المدارس الثانوية، ما يلقاه من جراء هذه «الجماعة» من التدافع، والتسلق، والصياح، والنداء، وخطف القبعات، وشد الشعر، والبحث عن اللبان ذى الفقاعات، والإهمال، واحتكار السيارة العامة جملة..

وحتى فى أواخر دور المراهقة، قلما يتحول إدعاؤهم الأولوية. وربما يتذكر المرء مناسبة من هذا الطراز وذلك حين صاح طلبة إحدى الجامعات يعلنون عدم رضاهم عن حديث محاضر زائر فابعدوه عن المنصة، وسرحوا لأحد مخبرى الصحف فى بساطة : «لقد كان مجرد مزاج، ولم نكن نظن أنه سيهتم بذلك...».

من المسلم به أن هذه صورة مبالغ فيها، ويمكن أن تختلف الأمثلة الفردية، فيكون الحال على العكس.. إذ يتسم المراهقون بالتواضع وحب المعاونة والأدب، والرغبة في اسعاد غيرهم، وإن كان الجانب المظلم هو الذى خبره كثير من الكبار.. وكانت نتيجة ذلك أنهم يرون فى هذا الدور من أدوار الطفولة أشد ما يغيظ وربما أفظع ما يخيف.. وحتى أولئك الذين يجدون فى هؤلاء الأولاد والبنات الأكبر سنا« بعض المتاعب» إنما يجدون ذلك لأنهم يدورون حول الموقف فى حذر، ويتجنبون فهمهم، كما لو كانوا يتجنبون سوء التفاهم معهم.

وهذا موقف يؤسف له، لأن للمراهقة سحرها الخاص.. بل فيها إيحاء للكبار بالنسبة لمعالجتها على الدوام بوساطة الكتاب والفنانين والقائمين على رعاية النشىء. ويمكن أن تكون معرفة هؤلاء المراهقين مصدر مسرة، وتوجيههم خلال هذه السنوات فيه نوع من الجزاء لا يعرفه إلا أولئك الذين عملوا بالقرب من النشىء..

أما بالنسبة للآباء والأمهات فينبغى أن يعيروا هذه المرحلة اهتماما خاصا، لأن هذا هو الوقت الذى إما أن يجتذب فيه الطفل عن طريق العطف فيقترب منهم، وإما أن يبتعد وينفصل عنهم، لأنه فى سن المراهقة يناشدنا بآخر نداء – وربما يكون أحر نداء – لكى نفهمه، فإن خذلناه اتجه وجهة أخرى.

ومع ذلك، فإن صدقت رغبتنا فى بذل أقصى ما نستطيع لصالح هؤلاء الأطفال الكبار – كما نفعل بالنسبة للصغار– فإننا ينبغى أن نحاول أن نفهم أولا لماذا يتصرفون إزاءنا هذا التصرف الفج!.. إنك لتجد لب الإجابة فى التغيرات الجسمية البينة الوضوح فى هذا الوقت الذي يتحول فيه كل من الصبى والفتاة على التوالى إلى رجل وامرأة. ولا مناص من أن يصحب هذا النمو الجسمى العنيف نمو عقلى.. فالمراهق ينطلق وقد تملكته تيارات جارفة من الميول والرغبات الجديدة.

وأهم هذه الرغبات جميعا– وأولها وآخرها– هى رغبته فى الاستقلال، إذ أن مرآته تدله على أنه لم يعد بعد طفلا.. فإذا كان نموه طبيعيا فإنه لا يرضى أن يعامل معاملة الطفل، فهو يريد أن يتأخر خارج البيت.. لا لأنه لايريد أن يأوى إلي فراشه كما يفعل الطفل الصغير، بل لأنه يريد أن يأخذ مفتاح الباب، ولا يريد أن يتحكم أحد فى موعد عودته..

كذلك لا يريد أن يسأل عن المكان الذى كان فيه، أو عن الطريقة التى

أنفق فيها نقوده، أو عن الملابس التى يلبسها، وقد يدلى بمعلومات عن كل مسألة من هذه المسائل بمحض إرادته، ولكنه يحتفظ لنفسه بالحق فى الامتناع عن ذلك..!

ويلى ذلك أن جسمه الناضج يوجه انتباهه إلى نفسه .. ولأول مرة يأخذ في تقدير نفسه على أنه فرد، فيدرك أنه حسن المنظر.. أو أنه – وهو الأشيع – دميم الخلقة.

ولقد دافع تولستوى عن المراهقة فى هذه الناحية، وكشف عن أهميتها الجوهرية عند الطفل فى عبارة خالدة : «كانت تنتابنى لحظات من اليأس بسبب دمامتى لأننى كنت أعتقد أن إنسانا له مثل هذا الأنف الكبير وهاتين الشفتين الغليظتين، وهاتين العينين الرماديتين الدقيقتين لا يمكن أن يطمع فى السعادة على هذه الأرض..

وقد اعتدت أن أسأل الله أن يأتى بمعجزة تجعل متى إنسانا جميلا، وكنت أتمنى أن أنزل عن كل ما أملك.. بل عن كل ما ينتظر أن أملك فى مقابل أن يكون لى وجه جميل..»

ولكن هذا لم يكن إلا بداية وعى عميق بـ «الذات» .. وعى يقوده إلي تقدير أدق لقدراته الشخصية، ولما يريد أن يفعل بها.. فالفتاة تعرف أنها سوف تنتهى إلى الدراسة الجامعية، وفى ضوء هذا الوضع تراجع ما يحتمل أن تزاوله من أعمال. والصبى يعرف أن لديه مهارة خاصة في أعمال النجارة، مما يجعله يرحب بالعمل في هذا الميدان.

حقيقة أنه فى كثير من الأحيان تومض هذه الآمال ومضات لم يسبق لها وجود.. فالصبى ينوى أن يكون طبيبا، ولكنه ليس كسائر الأطباء. فهو يقضى ساعات يزخرف أغلفة كتبه باسمه متبوعا بكل درجات الطب المعروفة .. والفتاة

تعمل جادة على تعلم فن من الفنون ولكن بشرط - وليكن هذا مفهوما - أن تصبح الفنانة الأولى دون منازع!

وترى كثيرات من المراهقات أن الحياة كالمنشار صعودا وهبوطا.. فهن يتخيلن أنفسهن على التعاقب، إما عانسات قبيحات ساخطات (أو ما يشاكل ذلك عند الذكور) يدبرن لأنفسهن معاشا تافها عن طريق عمل عادى، وتارة أخرى يرين أنفسهن فتيات ممتازات يخطب ودهن فى طول البلاد وعرضها.. فلا عجب إذن أن تجتذب قصة «سندريلا» الذكور والإناث على السواء!.. وبسبب هذه الحيرة المؤسفة التى يشعر بها المرء نحو ذاته : «هل أنا غبى، أم أن الناس لا يفهموننى؟» يكون المراهق فى حاجة يائسة إلى تقدير أولئك الكبار الذين يقال أنهم أدرى بالأمور.

وليس هذا كل ما فى الأمر، فإن الضوء الجديد لا يتحول إلى باطن الطفل فيكشف عن ذاته، ولكنه يتحول - كما يرى البعض غالبا- إلى الخارج، أى إلي البيت ومن فيه، فينكشف أمامه هؤلاء فى وضوح جديد مخيف.. فالأم لم تعد تلك المخلوقة العاقلة الجميلة - كما كانت أيام طفولته الأولى - بل هى امرأة قميئة رثة الملابس حادة الطباع فى معظم الأوقات، وهى من طراز قديم تماما.

ولم يعد الوالد نفس الشخص الماهر الشجاع القوى - كما كان يعتقد من قبل - بل أصبح محدود الظهر، ولايزال في نفس الوظيفة، ولم يحقق أى تقدم خلال ثلاثين عاما، ولسنا بحاجة إلى القول بأنه هو الآخر من طراز قديم. أما البيت فهو قديم، والشارع حقير، والبلدة كلها مقبضة، والشعب منحط. وتتنازع المراهق عدة نزعات تغريه بترك البيت.

ويرسم خطة لنفسه لكى يصبح سيد نفسه، ويصلح العالم ويلزم كل

إنسان فيه بالاصغاء إليه. وجملة القول أنه يفكر فى تحمل مسئوليات لا يستطيع معاملتها غير الشبان.

ويحسن بنا أن نتريث هنا لنلاحظ أن كثيرا من هذه الرغبات الجديدة العنيفة لا تعرفها المجتمعات البدائية لسبب واضح، وهو أن الأولاد والبنات هناك يعاملون معاملة الراشدين.. فهم يتزوجون ويصبحون أرباب عائلات وأسر، ومن ثم يحصلون على استقلال يحسدون عليه، ويشبعون رغباتهم الطبيعية فى سهولة ويسر.

وواضح أن جمهرة المراهقين فى مجتمعنا ليسوا موضع حسد.. ولكن استجلاء السبب فى صعوبة معاملة هؤلاء الأطفال ليس إلا نصف المشكلة، وهو ما قد يبدو فى نظر كثيرين من الكبار النصف الأقل أهمية.. أما الأمر الجدير بالإهتمام حقا، فهو كيفية معالجة هذه الميول بما يتفق وصالح الطفل وصالحنا.

وأول ما يجب علينا أن نسلم به تسليما كاملا، هو أننا لن نوفق إلى معاملة هؤلاء الأطفال معاملة سليمة ما لم نضع نصب أعيننا أن آراءهم تغيرت بحكم نموهم الجسمى. أما أن نقاومهم، ونكرر على أسماعهم قصة عدم نضجهم واعتمادهم علينا كقولنا :«لن تفعل ما يحلو لك.. لن أوافق على أهوائك ونزواتك» إنما يضاعف من مقاومتهم، وهم فى ذلك على حق..

لقد حانت الساعة التى ينبغى فيها السماح لهم بالقيام بعمل ما يحبون، وأن نساعدهم على أن يظهروا ما منح الله إياهم فى هذه المرحلة من محاسن.

ينبغى أن نحاول معاملة هؤلاء الأطفال معاملة أكثر مرونة مما كنا نفعل عندما كانوا أصغر سنا، فلا نضع فى طريقهم العراقيل كأننا نقول لهم : «قفوا عند هذا الحد ولا تتقدموا» لأن المد آت، ولن نستطيع أن نتفاداه مهما حاولنا.

ولذلك يجب أن نبذل ما فى وسعنا لكى نمنحهم فرصا أكثر للاستقلال

الذى يتوقون إليه، والذي هو صميم حقهم. ولحسن الحظ أن رغباتهم لا تزدهر بين عشية وضحاها، بل إنها تستمر فى النمو من ميلاد الطفل.. غير أنها فى هذا الدور تتخذ صورا أكثر تميزا. ومن أهم هذه الرغبات فى هذه المرحلة، أو فى أية مرحلة أخرى، أن يكون للطفل مال خاص به ينفقه على الوجه الذى يرونه.

وقد يكون بين بعض هؤلاء المراهقين الصغار من يكسب أجرا، فإن كانت صلاتنا بهم حسنة فلربما يمكننا الوصول بطريق المناقشة الودية وبمسألة حسابية إلى تقسيم عادل لمصروف الجيب. ويعد مصروف الجيب المعقول - بالنسبة لهؤلاء، وبالنسبة لأولئك الذين يعتمدون على والديهم - ضرورة أولية، ويجب أن ينفق كيفما يقرر صاحبه. وقليل من الناس من يتفق تماما على طريقة انفاق الدخل.. فليس هناك ما يدعونا إلى الاحتجاج بعنف على أن يبعثر أطفالنا نقودهم فى النادى أو فى شراء مجلة أو حقيبة جديدة.

بل يجب أن نتريث ونثق فى التدريب القديم الذى أخذناهم به، أو إلى الدروس القاسية التى يكتسبونها من شعورهم بالافلاس المؤقت حتى يكبحوا جماح رغباتهم فى الانفاق دون حساب.

وتتوافر جميع الأسباب التى تدعونا إلى تشجيع الصبى والفتاة - وهما لايزالان بالمدرسة - على كسب المال، إذا كان هذا يعنى أنهما يستطيعان الاختلاط بحرية مع أقرانهما فى وقت الفراغ، وأنهما سوف لا يحتاجان الينا فى كل قرش يريدون .. هذا إلى أن تدريب الطفل على عمل ما يؤديه بأمانة، يعتبر تدريبا نافعا.

ثم مسألة الملابس - وهى نقطة أخرى ذات أهمية وخاصة بالنسبة للفتيات، فالفتاة المراهقة يجب أن يسمح لها بقسط وافر من حرية الاختيار -

فإذا ما ناقشنا مسألة الطراز والذوق - كامرأة مع امرأة - وشجعنا الطفلة منذ وقت مبكر على الافصاح عما تحب وما لا تحب، دون أن نقول لها : «إنك سوف ترتدين الثوب الذى أريده لك أنا.. لأننى أنا الذى «أدفع الثمن» لو فعلنا ذلك، لما هزنا الخوف كلما قامت الفتاة بجولاتها الأولى لشراء ما يلزمها بنفسها، وكان من المرجح أن تسألنا الفتاة النصيحة قبل خروجها.

والحاجة إلى توفير حجرة خاصة لا تبلغ فى أهميتها - فى أى دور آخر- ما تبلغه فى هذا الدور بالنسبة لشخص آخذ فى النمو.. فإذا لم يكن ذلك ميسورا، فيجب إجراء تنظيم واضح فى أثاث الحجرة بحيث يعطى للطفل الأكبر قسم خاص من الحجرة يضم صوانا للملابس، أو خزانة مزودة بقفل، حيث يمكنه أن يحفظ فيها الأشياء التى يعدها خاصة بشخصه.

إن هذه الترتيبات التى نهيؤها لأطفالنا فى النواحى المادية سيقدرها أطفالنا رغم بساطتها، بوصفها دلالات واضحة على أن العائلة قد بدأت أخيرا فى العناية بأمرهم عناية جدية.. وهو الشىء الذي يريدونه أولا، وهذا سيمهد طريق المناقشة فى جو أكثر ودا حول نواح أخرى من الحريات يعالجها الطفل ووالداه مما يتعلق ببعض المقربين من الأصدقاء، كمشكلة السهر إلى وقت متأخر، واستعمال أدوات الزينة، والتكلف فى الحديث والمعاملة.. وبذلك يتشجع الطفل على عرض وجهة نظره، ويحترم آراء غيره .. وعن طريق مثل هذه الأحاديث يمكن الوصول إلي حل وسط.

ربما ينقصنا - نحن الكبار- شىء أكثر من اظهار تقديرنا لهؤلاء الأطفال الكبار.. فإذا ما أعجبنا بهم فى شىء، فكثيرا ما تتفادى التصريح بهذا الإعجاب أمامهم خشية أن يركبهم الغرور.

وإذا لم نعجب بهم فسرعان ما نشعرهم بأن الوقت قد حان لتبصيرهم

بمثل هذه الأمور : «لقد حان الوقت لكى تستجمع قواك وتبذل جهدك.. إن ولدا كبيرا مثلك (أو فتاة).. يخجلنى ويخجل والدتك..».

إننا بحاجة إلى التغلب على خجلنا عند التعبير عن حبنا وإعجابنا الذى نكنه لهؤلاء الأطفال، فنقول لهم ما نقوله لصديق من المقربين : «أن الثوب الأزرق يلائمك كل الملاءمة.. إنك تبدين اليوم غاية فى الأناقة.. اننى لسعيدة بالخروج اليوم معا.. لقد عملت خيرا مما استطعت أن أعمل.. إنها موهبة أصيلة فيك..»

بل أكبر من هذا قيمة أن نهتم إهتماما خالصا بأعمالهم، ونصغى إلى حديثهم برمته، ونصفق بملء عواطفنا لكل ما يمثلونه من المسرحيات المدرسية، ونستمع بكل إهتمام إلى حديثهم عن الجهود التى بذلوها فى جمعية المناظرات، أو فى فريق كرة القدم.

وأن نوسع هذا الاهتمام العاطفى بحيث يشمل جميع أعمالهم. كما كنا نفعل حينما كانوا فى الثانية من عمرهم يلتفون بكلماتهم الأولى.

ونستطيع فوق ذلك أن نعبر بحصافة عن عطفنا على مشكلاتهم التى تبدو جسيمة، فنقول للفتاة الكبيرة مثلا : «سيزداد جمسك رشاقة كلما كبرت.. أنها ليست إلا بضاضة الطفولة..» ونقول للصبى : «سأعطيك دهانا شافيا لهذه البقع»، كما نصغى لمشكلات عملهم فى مستهل عهدهم به، أو إلى مخاوفهم من الامتحانات.

هذه كلها وسائل نستطيع أن نظهر بها حبنا الثابت لأولادنا الكبار..

وأخيرا .. يجب أن نمنح المراهقين مسئوليات فى صورة مزايا أكثر منها أعمالا، وكثير من هؤلاء الأطفال تساعدهم المدرسة – إلى حد بعيد – على نسيان شعورهم الجديد بذاتيتهم، وعلى تنمية قدرتهم على الحزم عن طريق

نظام رؤساء الفصول «الألفوات». وكثيرا ما نستطيع أن نعمل في البيت وفق هذا المنهج، ولكن ليس بتكليفهم القيام بالأعمال المنفرة التى نضيق بها نحن، بل بمنحهم قسطا من سلطتنا، فنقول لطفل صغير مثلا : «يجب أن تسأل عمتك «ن» إن كانت ستصنع بعض الكعك لشاى يوم الأحد..

أنت تعرف أن هذه وظيفتها» أو : «أن «ب» سيعثر لك على مفك لدراجتك حتى تحاول إصلاحها بنفسك» وسيجد كثيرون من الأطفال متعة فى العمل الذى يتقنونه، وسيلفتون النظر إلى الركائز الخشبية والكعك المرصوص بنظام، وما إلى ذلك من أوجه المعاونة.

ويزيد الإهتمام بهذا النوع من خدمة الآخرين - بطبيعة الحال - إذا كانت فوائدها واضحة لمن يؤديها. وقد تدعى إحدى المراهقات لتنظيم حفل عيد ميلادها الخاص، واختيار قائمة الطعام، والتفكير فى برنامج الاحتفال .. وسيرحب الأصدقاء بالفكرة عندما يعلمون أن الأعداد والتنظيم قد تركا للمضيفة والضيوف، وبهذه الطريقة سيعرف المراهق أن الاستقلال لا يمنح دون مسئولية تأتى فى أعقابه.. وهذه حقيقة يود تجاهلها فى معظم الأحوال.

ونتوقع أن يطالب هؤلاء الأطفال بنصيب أوفر فى المناقشات العائلية، وفى المعاونة فى اختيار ورق الجدران الجديد، وتقديم الاقتراحات عن العطلة السنوية، ومن واجبنا أن نضع نقدهم لطريقتنا فى معالجة الأشياء موضع الاعتبار، فملاحظة مثل : «لماذا لم تصففى شعرك يا أماه ؟» ينبغى أن تقودنا فى صميم إلى المرآة بدلا من توبيخهم على وقاحتهم. وبينما نرغب فى نمو طاقتهم نموا سريعا - كنمو إدراكهم الحسى - فإننا ينبغى أن نسلم بنضجهم المستمر وأن نحمل تعليقاتهم محملا حسنا.

وأخيرا، نحتاج إلى أن نضع نصب أعينا دائما تلك الحقيقة، وهى : أن

معظمنا يتذكر الوقت الذى كنا نستعد فيه لاستقبال طفلنا الأول، وحين كنا لا نرضى إلا بأفضل الأشياء.. فكان تصميمنا هذا يرجع إلى رغبتنا فى استقبال الطفل بملء قلوبنا. وبعد مضى اثنتى عشرة سنة أو نحوها، علينا أن نستقبل هذا الطفل مرة أخرى، ونضمه إلى دائرة العائلة، ولكنا نستقبله فى هذه المرة بصفته فردا بلغ الرشد، ولا نبخل عليه بما كنا نسبقه عليه من قبل.

* * *

الفهرس

تابع الفهرس